

دورية ثقافية معرفية
تصدر أول كل شهر
www.klmtuhaq.blog

العدد 02
سبتمبر 2017
klmtuhaq

مجلة كلمة حق - السنة الأولى - العدد الثاني - 76 صفحة

لهذا فشلت الثورة العرابية

- الغزالي ثائرًا
- علوم محرمة على المسلمين
- العلمنة والمقاومة
- تجربة تنظيم أجناد مصر
- تاريخ النهب الغربي

محتويات العدد

السنة الأولى - العدد الثاني
سبتمبر ٢٠١٧





دورية ثقافية معرفية
تجمع نخبة من الكتاب والمفكرين

www.klmtuhaq.blog



klmtuhaq

فريق المجلة

المشرف العام

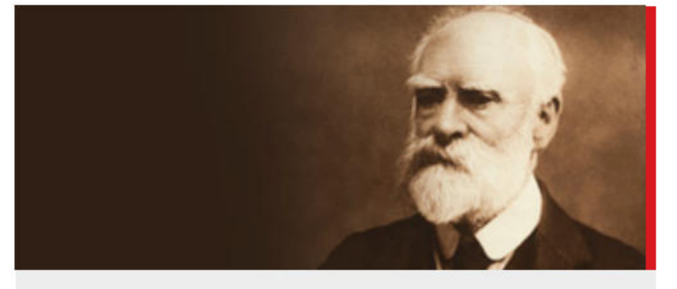
محمد إلهامي

مدير التحرير

معتز زاهر

كُتّاب هذا العدد

د. وصفي عاشور أبو زيد
محمد إلهامي
البشير عصام المراكشي
م. أحمد مولانا
م. أحمد بكر
د. عمرو كامل
د. عمرو عادل
يسرا جلال
د. أحمد الشرقاوي
محمد شعبان صوان

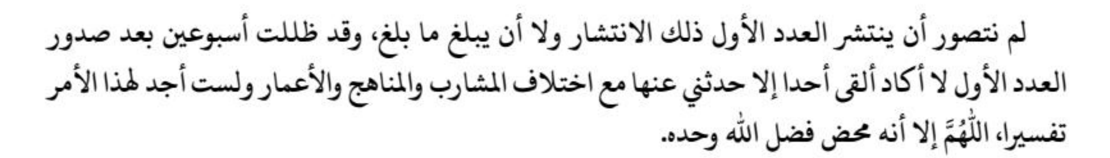




الحمد لله أولا وآخرا

الافتتاحية

محمد إلهامي



لم نتصور أن ينتشر العدد الأول ذلك الانتشار ولا أن يبلغ ما بلغ، وقد ظللت أسبوعين بعد صدور العدد الأول لا أكاد ألقى أحدا إلا حدثني عنها مع اختلاف المشارب والمناهج والأعمار ولست أجد لهذا الأمر تفسيرا، اللَّهُمَّ إلا أنه محض فضل الله وحده.

وقد سجلت صفحة المجلة زيارات من جميع أنحاء العالم حتى إننا نستطيع أن نعد البلدان التي لم تسجل لنا زيارات، ولقد كان من مثيرات دهشتنا أن نرى في قوائم الزيارات دولا مثل: بنين وجيبوتي وقبرص وتشيلي وصربيا وأوغندا والسنغال ومدغشقر وكمبوديا وغينيا والصين ونيوزلندا ومقدونيا وروسيا والبرازيل واليابان والنرويج، وكل دول أوروبا، وكل الدول العربية والإسلامية، وكان نصيب الأسد كما هو متوقع لقلب العالم الإسلامي: مصر والسعودية وتركيا، حيث بلغ معدل الزيارات بضعة آلاف!

على أننا نعي ونعلم تماما أن كل هذا لا يغني عنا من الله شيئا إن لم يكن العمل خالصا لوجهه الكريم، وقد تعلمنا في الكتاتيب قديما أن أول من تسعر بهم النار: مجاهد ومنفق وقارئ قرآن أنعم الله عليهم بفضله ثم بذلوه لوجه الناس: ليُقال، "وقد قيل"! فنسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا وإياكم من المخلصين!

وقد أخبرنا نبينا أن من لا يشكر الناس لا يشكر الله، فنحن نجد أنفسنا مدينين لكل شخص ساهم في نشر العدد الأول من المجلة ولو بكلمة أو ضغطة زر أو تنويه، ونرجو أن يكون لهم من الأجر مثل ما للقائمين عليها لقول نبينا الكريم "الدال على الخير كفاعله".. ولا نقول إلا كما علمنا نبينا "جزاكم الله خيرا".

إن هذا المعدل الذي فاجأنا إنما دلل على صحة ما توقعناه من أن الحديث في إنضاج الوعي الثوري مطلب تحتاجه الأمة وتبحث عنه، وصحيحٌ أن جانب العلم والوعي من الثغرات التي تحتاج جيوشا من الباحثين لسدها إلا أن الصحيح أن هذا الجانب على وجه الخصوص يعاني من ندرة شديدة لأسباب كثيرة معروفة، فنحن إن صرفنا النظر عن الأدعياء والفارغين والمنتفخين لم يبق لدينا من أهل الوعي والعلم إلا عدد قليل، ولم يبق من هؤلاء القليل من يتحدث في هذا الباب إلا أقل أقل القليل.

ونحن بقدر ما نجتهد في أن نقدم وعيا ناضجا يتجنب ما هو مكرور ومشهور، بقدر ما نتمنى وننتظر أن ينضم إلينا من كتائب الأقلام الناصحة الواعية ما يثري مجلتنا ويُثَورها، وقد جاءتنا كثير من الرسائل تسأل عن الكتابة إلينا، وقد رددنا على بعضها، والآن نرد عليها بشكل عام، فنقول:

لا نشترط في الكتابة إلينا إلا أن يكون المقال:

١. علميا لا تغلب عليه العاطفة، فإن العاطفة لا تنصر حقا ولا تهزم باطلا، وليس ينقص الأمة العواطف الملتهبة فكل ما فيها يُشعل العاطفة في أسكن قلب وأبرده، وإنما ينبغي أن يكون المقال خلاصة علمية، ولذا فلا يُمضى المقال للنشر دون مراجعة علمية من فريق المجلة وفريقها الاستشاري.

٢. في باب الثورة، فتلك هي قضية الأمة الكبرى الآن، وهو واجب الوقت كما نراه، بل ونرى أنه ليس من شيء أوجب من إنجاح تلك الثورات، فهي الحال الوحيدة التي يمكن أن ينضج فيها سائر مشارب الاتجاهات الدعوية: العلمية والوعظية والاقتصادية والسياسية، وهي الأمل الوحيد في تغير الحال من الاستضعاف إلى القوة إلى التمكين، وفشل الثورات سيأتي على كل الاتجاهات الدعوية بالخسران الكبير.

٣. عمليا يتناول أمرا يُستفاد منه كأن يكون إجابة على سؤال "كيف نفعل كذا"، أو "في الموقف الفلاني ماذا ينبغي أن نفعل"، وهو مجال واسع، فالسياسي يكتب في أسباب وطرق امتصاص الثورات وفشلها والخداع في المفاوضات، والاقتصادي يكتب عن إدارة اقتصاد الثورة أو المناطق التي حررتها الثورة أو تصور الثورة لما بعد نجاحها، والإعلامي يكتب في إعلام الثورة ونفسية الجمهور وخطاب الثورة، والقانوني يكتب عن مواجهة ما قد ينشأ بين أطياف الثورة من خلافات وما ينبغي أن تتوجه الثورة لتطهيره من المؤسسات وما ينبغي أن تسنه من القوانين وما ينبغي أن تدار به المناطق التي خرجت عن سيطرة النظام، والدعاة والفقهاء والعلماء يكتبون لنا عن سيرة الثائرين وفقه العلماء في المقاومة واجتهاداتهم في المواجهة... وهكذا.

٤. وأن يكون مكتوبا باسم صاحبه، لا باسم مجهول ولا بكنية، فلئن كان ثمة ما قد يعرقل نشر الاسم لظروف خاصة، فيمكن للمجلة أن تحتفظ بالاسم دون نشره لرغبة صاحبه.

ونحن في مجلتنا هذه حفيون بالكيف قبل الكم، فلئن استطعنا نشر ألف صفحة قيمة فيا حبذا، وإلم نطق سوى نشر مقال واحد قيم فهو المقدم عندنا على ملء الأوراق وتسويد الصحف وتضييع وقت القارئ في غير ما تعاهدنا عليه.

نسأل الله تعالى أن يبارك في هذا العلم والقائمين عليه وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به في مشارق الأرض ومغاربها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الغزالي ثائرًا

د. وصفي عاشور أبو زيد



في ٢٢ من هذا الشهر، تمر بنا الذكرى المائة على مجيئ رجل حبيب إلى قلوبنا عزيز على أنفسنا إلى الدنيا، نذر نفسه للدعوة إلى الله، والجهاد من أجل إعزاز رسالة الإسلام، والدفاع عنه في كل ميدان، ورد الشبهات عن حماه، إنه الشيخ محمد الغزالي رحمة الله عليه.

ولقد نذر الشيخ نصف حياته الفكرية الأول لبيان مفاسد الاستبداد والمستبدين، ومقاومة الزحف الأحمر والمذاهب الفكرية الهدامة، في حين كان نصف حياته الأخير متمحورًا حول كشف عوار الفكر "الأحول"، وبيان زيف التدين المغشوش، والتحذير من الفهم المغلوط للإسلام.

ومن خلال معرفتي المتواضعة بتراث الشيخ الغزالي رأيت أن نتحدث في هذه المناسبة عن رؤيته للثورات والثوار، لا سيما وأمتنا العربية تمر بعصر الثورات الشعبية، التي أجرى الله تعالى قدرها على هذه الأمة في هذا الوقت، بعد أن صلِيَت الشعوب نار الظلم والقهر ونهب مقدرات البلاد.

أسباب الثورات ومطالب الثوار

يرى الغزالي أن أسباب الثورات هي: شيوع الظلم، ومصادرة الحريات، وسلب ضرورات الجماهير، يقول: "العدل هو المساواة التي لا تعطي أحدا حقًّا ليس له، ولا تبخس إنسانًا شيئًا من مقومات حياته الكريمة! غير أن الدنيا كانت عند سوء الظن بها! فما لبثت حقوق الأمم المعقولة أن وضعت على موائد المترفين، فأكلوها أكلا لَمًّا، وسلب الألوف ضروراتهم ليُتخَم بها أفراد، وصودرت حرياتٌ شتى ليشبع طغيان الكبر عند الأوغاد، وقد تُقلب بعض صحائف التاريخ فتسمع بها ضجيج الثوار الذين حطموا الأصنام، وهتكوا حجاب الخرافات المقدسة، ولكن صحائف التاريخ الطويلة، عليها صمت مريب، كأنما هو صمت القبور، التي ماتت فيها الآمال، وذلت فيها الرجال من طول ما توارثت البشرية من عسف وطغيان وتشريد"[١].

(١) الإسلام المفترى عليه: ٤٦. طبعة نهضة مصر، وكل الطبعات التي اعتمدنا عليها هي طبعة نهضة مصر.

ومن أسبابها أيضا شيوع حكم الفرد، يقول: "ونحب أن نقول بجلاء: إنه حيث يسود الحكم المطلق تنتقض الإنسانية من أطرافها، بل من صميمها"(١).

وفي مقام آخر يبين فيه أن سر نجاح الثورات مرتبط بظهور غصب حقوق الناس، وفشوّ أكل أموالهم بالباطل، يقول: "إن الأمة التي يفشو فيها أكل أجور العامل، وغصب حقوقه الواضحة، ليست الأمة التي تعيش في ضمان السماء، أو التي تتوقى نكبات الحياة، أو التي إذا أصابها حرج توقع لها الفرج، بل على العكس، لا تكاد تتردى في هاوية حتى تجد من يتقدم ليهيل عليها التراب لا لينجدها: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾. وذلك سر نجاح الثورات الكبرى في هذه الحياة! إنها تندلع في نظم قد دب فيها البلى، وطال منها الظلم، وابتعد عنها التوفيق، وأدبر عنها النجاح، فما تكاد نذر التمرد على الطغيان والاستبداد تظهر في الأفق حتى يفغر التاريخ فمه ليبتلع دولة شاخت، ويسلكها في عداد الذكريات المرة، وليتأذن بميلاد دولة جديدة ونظام جديد تتعلق به آمال البشر كرة أخرى"(٢).



ويبين الشيخ الحالة النفسية والواقعية للثوار حين تحقُّق الثورة كرد فعل على طول وقوع الظلم عليهم والعسف بهم: "ما إن اندلعت الثورات في القرن الأخير حتى تطلعت الجماهير إلى مساواة خيالية! كالظمآن الذي طال عليه العطش، فلما وقع على الماء أخذ يعب ويعب حتى خرج الري من أظافره"(٣).

وفي الوقت نفسه يستبعد الشيخ الإمام، بل يرفض، إلباس الثورات ثوب الاضطهاد الديني سببًا لها، يقول: "وإلباس الثورة في مصر ثوب الاضطهاد الديني محاولة فاشلة لجعل تاريخ الإسلام مشابهًا لتاريخ النصرانية في التعصب ضد الأقليات"(٤).

(١) من مقالات الشيخ محمد الغزالي: ٦٦/١.
(٢) الإسلام والمناهج الاشتراكية: ١٩٠.
(٣) الإسلام المفترى عليه: ٤٦.
(٤) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام: ٢٣٩.

وظيفة الحاكم والحكومة وحكم الخروج عليهما ووقته وثمن الثورات

وفي سياق الثورات وبعد بيان أسبابها يحسن أن نورد تكييف الشيخ لوضعية الحاكم ووظائفه في الإسلام، وكذلك الحكومة وواجباتها نحو الأمة، يقول: "وظيفة حاكم ما في أي بلد مسلم، أن يحرس الإيمان ويقيم العدالة ويصون المصالح، فإذا فرط في أداء هذه الواجبات فقد قصر في أعمال وظيفته، ووجب تنبيهه وإرشاده، أما إذا هدم الإيمان بالإلحاد، وأضاع العدالة بالجور، وأهمل المصالح باللهو، فقد خرج عن طبيعة وظيفته ووجب إسقاطه"[١].

ويبين متى ينحل العقد الذي بين الحاكم والمحكومين، فيقول: "والأمة في حل من السمع والطاعة بداهة إذا حكمت على أساس من جحد الفرائض، وإقرار المحرمات ونهب الحقوق وإجابة الشهوات؛ لأن معنى ذلك أن الحكم قد مرق من الإسلام وفسق عن أمر الله، وأن الحاكمين أنفسهم قد انسلخوا عن الدين، فليس لهم على أحد عهد!"[٢].

ويبين بإدراك تحليلي لما يبدأ عليه أمر الحاكم حين توليته، وما يؤول إليه حاله فيما بعد، فيقول: "وللحُكم إغراء يزين لمتوليه أن يتخفف رويدًا رويدًا من تبعات الفضيلة والعفاف، وما أكثر ما يذكر الحاكم شخصه وينسى أمته، وما أسرع أن ينسى مثله العليا ويهبط عنها قليلًا قليًلا، وما أيسر أن يستخدم سلطانه الواسع في غير ما منح له! بيد أن دين الله إن حاف عليه الولاة الطاغون فيجب أن ينتصب له في كل زمان ومكان من يذودون عنه ويصونون شريعته، ولو تحملوا في ذلك الويل والثبور"[٣].

وهذا الذود وذاك الصون له ضريبته وثمنه كما ذكر الشيخ، ويؤكد دائما على هذا المعنى فيقول: "وليس هذا التغيير سهلا؛ فإن الأيدي الحمراء وحدها هي التي تصنعه! الأيدي التي عناها الشاعر يوم قال: وللحرية الحمراء باب * بكل يد مضرجة يدق"[٤].

---

(١) الإسلام والاستبداد السياسي: ١٦٠.
(٢) الإسلام والاستبداد السياسي: ١٦٢.
(٣) الإسلام والاستبداد السياسي: ١٦٣.
(٤) تأملات في الدين والحياة: ٢٥.

ضوابط للثورات

وحتى تؤتي الثورات ثمارها، وتحقق غاياتها، وتلبي تطلعات الشعوب التي قامت من أجلها، فقد تحدث الشيخ عن سياسة عامة لا يصح أن تغيب عن عقول المصلحين أثناء الثورات، وأورد ضوابط أخلاقية يجب أن ينضبط بها الثوار حتى لا نسيء من حيث أردنا الإحسان، يقول الشيخ: "على أن لقول الحق وغرسه في المجتمع سياسة لا ينبغي أن تغيب عن أذهان الدعاة والمصلحين، فليس الهدف المقصود أن يستقتل المرشدون من غير جدوى، وأن يضحوا بغير ثمرة؛ فذلك ما لا ينتفع به الحق، ولا يضار به الباطل، وقد رأى الفقهاء أن إزالة المنكر إذا استتبعت مفسدة أعظم، فمن الخير التربص بها وارتقاب الفرص السانحة لها، والسكوت حينئذ ليس سكوت مجبنة وتخوف، ولكنه ترسم سياسة أفضل في حرب المنكر كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾. كما أن الحماسة للخير لا تعني السفاهة على الناس، وسوء الأدب في عشرتهم، والمتاجرة بأخطائهم؛ بغية فضحهم والتشهير بهم، فذلك كله ليس خلق المسلم ولا منهجه في تدعيم الجماعة ورفع شأنها، فالحرية المطلوبة حدها الأعلى أن نتمكن من قول الحق، لا أن نتمكن من التطاول والبذاء!"[١].

شروط نجاح الثورات

> إن نجاح النهضات وبقاءها يرتبطان بمقدار ما تستند إليه من مشاعر وأفكار

ونجاح الثورات والنهضات مرهون بشروط متى تحققت نجحت الثورة، ومتى غابت لم تُحقق الثورة نجاحًا يذكر؛ ولهذا يرى الشيخ أن من شروط نجاحها التمهيد لها بأدبيات تملأ النفوس وتشحذ العقول وتحمس الهمم بما يحقق يقظة إنسانية عالية وشاملة، يقول الشيخ: "إن نجاح النهضات وبقاءها يرتبطان بمقدار ما تستند إليه من مشاعر وأفكار، بل إن الارتقاء الصحيح لا يكون إلا معتمدًا على خصب المشاعر ونضارة الأفكار؛ ولذلك لابد في الثورات الاجتماعية الكبرى من ثورات أدبية، تمهد لها، وتملأ النفوس والعقول إيمانًا بها.. وقد تعتري الأمم هزات موقوتة، أو انكسارات وانتصارات سريعة، وقد يصيب الحضارات مد وجزر لأسباب شخصية أو محلية، وذلك كله ينظر إليه المؤرخون نظرة عابرة، ولا ينتظرون من ورائه نتائج بعيدة المدى، أما النهضات التي تصحبها يقظات إنسانية واسعة، وتحف بها عواطف جياشة ونظرات عميقة؛ فهي أمر له خطره، وله ما بعده"[٢].

---

(١) الإسلام والاستبداد السياسي: ١٦٤.

(٢) نظرات في القرآن: ١٢.

كما أن من شروط نجاحها - عند الشيخ وعند العقلاء - تحقق الوحدة على اختلاف المشارب والأفكار، فمتى تخلى الجميع عن رؤاه الخاصة ومكاسبه المحدودة، وذاب مع غيره في إطار تحقيق هدف واحد ومصلحة كبرى تحقَّقَ النجاح بلا ريب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾، أما حين تجتمع الأجساد وتتفرق العقول والأرواح فهنا يكون الفشل المؤكد، ويقوم المرتزقة بسرقة الثورات ووراثتها، يقول الشيخ: "سمعت قائلا يردد في ألم: نحن متفرقون على حقنا، وهم مجتمعون على باطلهم! فقلت له: ما أحسب المتفرقين على حقهم أصحاب حق، فطبيعة الحق أن يجمع أهله! إن أعدادًا كبيرة من السائرين تحت لواء الحق تكمن في بواطنهم أباطيل كثيرة، فهم يحتشدون بأجسامهم فقط تحت رايته، ويبدو أن المآرب الكثيرة، والأغراض المختلفة، تجعل لكل منهم وجهة هو موليها، وذاك في نظري ما جعل ثورات عديدة تسرق من أصحابها، ويسير بها الشطار إلى غاية أخرى! حتى قيل: الثورات يرسمها المثاليون وينفذها الفدائيون ويرثها المرتزقة! ترى لو كان المثاليون والفدائيون على قلب رجل واحد في الإيثار والتجدد أكان يبقى للمرتزقة موضع قدم؟ إن أخطاء خفية، نستخف بها عادة، هي التي تنتهي بذلك المصير!"[1].

هكذا تحدث إمامنا المجدد الثائر على الظلم والظالمين الشيخ محمد الغزالي عن الثورات في ضوء ما سبق من ثورات في العالم، لكن حديثه عنها لم يزل صالحا لاستلهامه في ثورات معاصرة أو ثورات تالية، وهذا مستمد من الفكر الإسلامي الذي نشأ في حضن القرآن وتحت راية السنة؛ ولهذا يستمد خلوده من خلودهما، فرحمة الله عليه.

---

(١) الحق المر: ١/٥٧.



لهذا فشلت الثورة العرابية

محمد إلهامي

كانت الثورة العرابية أخطر تهديد لنظام الدولة الحديثة العلمانية التي أسسها محمد علي باشا، تلك الدولة التي حطمت نظام المجتمع الإسلامي وأنشأت نظامًا استبداديًّا قاهرًا على نمط فرعوني جديد تتحول فيه السلطة لغول يستولي ويستعبد كل ما في البلاد من بشر وموارد.

الأدهى والأمر أن نظام محمد علي تأسس على يد نخبة من الأجانب، فلقد كانوا سادة البلاد وأصحاب الأمر والنهي فيها، وقد استكثر محمد علي في بلاطه من اليهود والنصارى كما لم يفعل حاكم في كل التاريخ الإسلامي، وهو الأمر الذي استمر واستقر من بعده بأفحش وأشنع مما كان في وقته، حتى وصل الحال في عصر الخديوي إسماعيل إلى أن كان الأجانب هم سادة كل مؤسسات البلد المهمة من الجيش وحتى البريد، وصار لهم وزارتان في الحكومة المصرية: المالية والعمل (الأشغال)، وكان النظام القانوني في مصر يجعل الأجانب سادة حتى على الخديوي نفسه، وتستطيع محكمة أجنبية أن تقضي بحجز أموال الخديوي ومنعه من التصرف فيها.

كانت مصر كنزًا يسيل في جيوب الأجانب، حتى إن الشحاذ في أوروبا كان يلقي بنفسه في المركب (هجرة غير شرعية!) ليصل إلى مصر، فيجد النظم والقوانين والقنصليات والحماية الأجنبية توفر له كل عوامل الغنى والثراء ونهب الموارد المصرية. ولهذا فقد كان النظام في مصر محققًا للمصالح الأجنبية كما لم يكن نظام آخر، وهذا بغير تكلفة الاحتلال العسكري المباشر.

كان مـن نتائـج هـذا الوضـع وجـود سـخط شـعبي عارم جعـل حركـة تململ محـدودة في الجيـش تتحـول مـن فورهـا إلى ثـورة شـعبية كبـيرة، وكان مـن نتائجـه أيضًـا أن يصـير تغيـير النظـام في مـصر مشـكلة دوليـة لا محليـة، تتحـرك لهـا البـوارج والقـوات الأجنبيـة، وتتفـق عليهـا القـوى الاسـتعمارية رغـم اختلافهـم الواسـع فيمـا سـوى ذلـك مـن المصالـح.

حاولـت القـوى الاسـتعمارية نـزع فتيـل الثـورة بتغيـير رأس النظـام (الخديـوي إسـماعيل) فعُـزِل الخديـوي الذي التقـت على عـزله رغبـات جميـع الأطـراف: الشـعب والنخـب المتذمـرة، القـوى الأجنبيـة للحفـاظ على النظـام واسـتباق الثـورة، السـلطان العثمـاني (عبـد الحميـد الثـاني) الذي يحـاول اسـتعادة سـلطانه على مـصر ومقاومـة التغلغـل الأجنـبي.

أحمد عرابي

جـاء ابنـه الخديـوي توفيـق فسـعى في تصفيـة الثـورة ضمـن إجـراءات التغيـير، فنـفى أبـرز رمـوز الحـراك الثـوري: جمـال الديـن الأفغـاني بعمليـة سريـة سريعـة بمنتصـف الليـل، وتـرأس بنفسـه الحكومـة ليغـل يـد البرلمـان عن محاسـبتها، وجـاء بحكومـة يقودهـا القانـوني الإصـلاحي «محمـد شريـف باشـا» الملقـب بـ «أبـو الدسـتور المـصري»، وأجرى تعديـلات في ألويـة الجيـش ليبعـد بهـا ألويـة عـرابي ورفيقيـه عـن القاهـرة، ثـم حـاول القبـض على عـرابي ورفاقـه لـولا أنهـم انتبهـوا. على مسـار آخـر سـعى محمـد شريـف باشـا إلى تصفيـة قـوة عـرابي وإلى غـل يـد البرلمـان، وإلى الاسـتجابة للضغـوط الإنجليزيـة الفرنسـية «لسـحب الذرائـع وتفويـت الفرصـة»، ممـا أشـعل مواجهـة بـين الحكومـة الإصلاحيـة والقـوى الثوريـة اضطـرت معهـا الحكومـة إلى الاسـتقالة وأعقبتهـا حكومـة ثوريـة بقيـادة محمـود سـامي البـارودي، وكان عـرابي هـو وزيـر الحربيـة فيهـا.

هنـا بـدا أن الأمـر سـينفلت وأن نظـام محمـد عـلي على وشـك السـقوط، ودعـم السـلطان العثمـاني تلـك الحركـة بـكل قوتـه، وأنعـم على عـرابي برتبـة الباشـا، وكانـت له معـه مراسـلات سريـة أبـدى فيهـا موافقتـه على إنهـاء نظـام أسرة محمـد عـلي، وتلـك هي الشرعيـة الكـبرى الـتي حازتهـا الثـورة العرابيـة، كذلـك فقـد ألـقى السـلطان عبـد الحميـد بـكل ثقلـه السـياسي لمحاولـة منـع الإنجليـز مـن احتـلال

مصر في مؤتمر القسطنطينية، إلا أنه لم ينجح، واستطاع الإنجليز بتفاهم مع الحكومات الغربية أن ينزلوا لاحتلال مصر بذريعة أن الأجانب في خطر وأن عرابي مثير للقلاقل والأزمات فوق أنه يمارس إجراءات عدوانية «تحصين ساحل الإسكندرية»!

لسنا هنا بإزاء حكاية الثورة العرابية ولكن لحكاية: كيف فشلت تلك الثورة التي اجتمع لها كثير من عوامل النجاح؟ الواقع أنه يمكن تلخيص هذا الفشل في سبب رئيسي كبير هو: العقلية العسكرية لأحمد عرابي.

كان عرابي ثمرة من نظام الجندية الذي بدأ في عصر محمد علي، الجيش النظامي الرسمي المتدرب على طاعة الأوامر والمتشرب للتقاليد العسكرية الغربية، التي بدأت بالجنرال الفرنسي سيف (سليمان باشا الفرنساوي) واستمرت مع بقية القيادات الفرنسية والأمريكية والإيطالية التي توالت وانتشرت في المراتب العليا للجيش المصري.

لقد كان عرابي متدينًا، لكنه لم يتشرب الجندية الإسلامية بل تشرب الجندية الغربية، وقد أدى هذا لثلاث مشكلات عظيمة صنعت بمجموعها فشل الثورة العرابية.

١. الإيمان بالقانون الدولي

كانت الخطة البريطانية لاحتلال مصر هي الهجوم عليها من ناحيتين؛ الأولى: من الإسكندرية عبر البحر المتوسط بضربها بالمدافع المحمولة على السفن البحرية والتي لا تستطيع المدافع المصرية أن تصل إلى مداها، ثم إنزال القوات البرية لتسير إلى القاهرة. والثانية: عبر البحر الأحمر عند السويس حيث تأتي القوات الإنجليزية من الهند والخليج لتدخل البحر الأحمر ثم إلى قناة السويس ثم تنزل برًّا إلى القاهرة.

فكر عرابي تلقائيًّا في ردم قناة السويس، وهو التفكير الحربي المنطقي والطبيعي ليمنع رسو السفن الحربية وإنزال القوات الإنجليزية، وهنا تصدى له ديليسبس صاحب شركة القناة، وأحد المجرمين العتاة الكبار في تاريخ مصر، وأقنعه بكل وسائل الإقناع: الرغبة والرهبة أن القناة ممر ملاحي دولي محايد لا يمكن لبريطانيا خرق القانون الدولي واستعماله للأغراض الحربية، وأنه هو -أي ديليسبس- لا يمكن أن يسمح بهذا، ومن ورائه فرنسا.

إيمان عرابي بالقانون الدولي والشرعية الدولية وما إلى ذلك منعه من ردم القناة.. وهو المسار الذي دخلت منه القوات البريطانية، ومنه أوقعت بالجيش المصري هزيمة التل الكبير المشهورة، والتي كانت بداية الاحتلال. أما في الجهة التي حصنها عرابي ووضع فيها القوات المصرية فقد استطاع أن ينزل هزيمة كبيرة بالقوات البريطانية عند كفر الدوار. ولو لم تجد القوات البريطانية ممر قناة السويس لماتوا جوعًا وعطشًا وما استطاعوا إنزل قواتهم في الصحراء الشرقية والتعرض لمهالكها.

أما ديليسبس فقد أرسل برقية إلى عرابي يتأسف فيها أن بريطانيا خرقت القانون الدولي وأن لعرابي أن يفعل الآن ما يشاء!

يومًا ما حين تنتهي دولة محمد علي العلمانية العسكرية سينصب المصريون تمثالًا لديليسبس لرجمه، بل ولجمعوا مئات أو آلاف التريليونات من فرنسا للتعويض عما أجرمه في حق بلادنا بدعم وتواطؤ حكومته.

٢. الإيمان بمؤسسات الدولة

بين بداية بواكير الثورة وبين وقوع الاحتلال الإنجليزي ست سنوات، وبين بداية تولي وزارة الثورة وبين احتلال القاهرة سبعة أشهر (من فبراير سبتمبر ١٨٨٢م)، وطوال الوقت لم يتخذ عرابي وسيلة للاستفادة من قوات المتطوعين القادمين للجهاد معه في سياق الثورة أو في سياق مقاومة الاحتلال الإنجليزي!

لقد اعتمد عرابي على «مؤسسة الجيش» النظامي، وهو ما جعل طاقة ضخمة من الشعب محذوفة من المعركة، لا هي تدري كيف تساعد، ولا القيادة تفكر في الاستعانة بها، وهو ما انعكس بقوة على نتائج المعركة التي انتهت بالاحتلال الإنجليزي.

إن فكرة تسليح الشعب كانت حاضرة بقوة طوال تاريخنا الإسلامي، حيث كانت الشعوب بطبيعتها مسلحة، لكن منذ أن حرم محمد علي على الناس حمل السلاح خرج الشعب من المعركة وصار عبدًا للاستبداد ثم للاحتلال، كالأسير الأعزل بين يدي السجان المسلح! وقد كان ممكنًا لفكرة مثل تسليح الشعب أن تغير ميزان القوى كله لتجعل طاقة المقاومة أضعاف أضعاف ما يستطيعه الجيش النظامي.

لكـن عـرابي الذي تـربى في جيـش الدولـة النظـامي لـم يكـن بـالذي تخطر برأسـه مثـل تلـك الأفكار المناقضـة لطبيعـة الدولـة الحديثـة ومنهجهـا، فلـم يكـن في المواجهـة إلا الجيـش وحـده بينمـا الجماهـير لـم تملـك إلا مقاعـد المتفرجـين والمشـجعين.. وقديمـا كان الجيـش الرسـمي إن هـزم بـدأت المقاومـة الشـعبية، أمـا منـذ محمـد عـلي وحـتى اللحظـة فـإن هزيمـة الجيـش الرسـمي تعـني سـقوط البـلد كلهـا في قبضـة الاحتـلال، وهـو مـا كان!

٣. الإيمان بالتقاليد العسكرية

حـين هُـزِم جيـش عـرابي المأخـوذ على حـين غـرة في التـل الكبـير، تـصرف أحمـد عـرابي كعسـكري مهـزوم لا كقائـد ثـورة.

والتقاليـد العسـكرية الـتي شربهـا عـرابي في جيـش محمـد عـلي تدفـع بالقائـد المهـزوم إلى تسـليم نفسـه للمنتـصر، متوقعًـا مـن الطـرف المنتـصر أن يتعامـل معـه كقائـد مهـزوم، بينمـا التقاليد الإسـلامية بـل ودوافـع الفطـرة الطبيعيـة إن لـم تتلـوث تقـضي على القائـد المهـزوم أن يتحـول إلى قائـد مقاومـة سريـة تسـتحث كل مـا مـن شـأنه إشـعال الأرض تحـت أقـدام العـدو الغاصـب.

ولقـد كان بالإمـكان إن لـم يستسـلم عـرابي أن تواصـل المناطـق المنتفضـة والـتي اسـتعدت للمقاومـة نضالهـا، وهـو الأمـر الذي تحطـم بتسـليم عـرابي لنفسـه، فانتـهى حلـم المقاومـة السريـة. ومـن جهتهـم سـعى الإنجليـز مـن لحظـة الاحتـلال الأولى إلى تسريـح الجيـش المـصري وإبقـاء قـوة صغـيرة لا تسـمن ولا تغـني مـن جـوع، وهي إن اسـتخدمت فإنمـا سـتكون كقـوة «مكافحـة الإرهـاب» لا غـير.

هكذا فشلت الثورة العرابية..

فشلت بالقناعات والأفكار قبل أن تفشل لأسباب القوة والحرب، وبدأ عصر الإنجليز.

وهكذا تجرع المصريون جميعًا ولسبعين سنة ثمار الإيمان بالقانون الدولي، والإيمان بمؤسسات الدولة، والإيمان بالأعراف والتقاليد العسكرية.. والمؤسف أن من لا يُتَهمون في شرف ووطنية لا زالوا يؤمنون بتلك الثلاثية التي أوردتنا المهالك والمجازر والمذابح، وألقت ببلادنا في يد الإنجليز قديمًا، وفي يد الصهاينة والأمريكان اليوم!



العلمنة والمقاومة

البشير عصام المراكشي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه.

من صراع الأفكار يبدأ كل شيء فتحت راية عقائد الكفاح، تنطلق جموع المقاومين والمجاهدين، وهم يحملون بأيديهم المتوضئة شعلة الفكر الأبيّ

وتحت الأنغام الهادئة لعقائد الخنوع، ينام المرجفون والجبناء، وفي أيديهم عرائض الذل ومنشورات الهوان، يسوّغون بها قعودهم عن نصرة الحق ..وأفكارُ الخنوع وعقائد الانحناء، المناقضةُ لفكر المقاومة والانعتاق، كثيرة في أعدادها، متنوعة في استمدادها .

فمنها ما يحمل الذلَّ في ذرات كيانه، ويلتحم بالهوان في حقيقة ماهيته، كالجبرية والإرجاء ..ومنها ما يلتحم بالذل والخنوع في ظروف مخصوصة، لأغراض مخصوصة، كالعلمنة التي تدبّ اليوم في مفاصل الأمة، ولا تلتقي في المفهوم - بالضرورة - مع مناقضة المقاومة، وإن كانا يجتمعان في الماصدق اليوم، لأسباب ستأتي - إن شاء الله - في مطلب العلمانية السلطانية.

والعلمنـة كالآكلـة .. تنخـر الفكـر في جميـع أجزائـه، وأدقّ مفاصلـه، حـتى مـا تـدع فيـه نسـيجا مكتمـلا، ولا موضعـا مـن العيـب سـالما ..وهي كالريـح الخبيثـة .. تنـدسّ في كل غرفـة، مـتى وجـدت أدنى صـدع في البـاب، أو ثقـب في النافـذة ..وهي كالهـواء الملـوث .. يتسـرب إلى كل مـكان مـتى وجـد فيـه فـراغا يتمـدّد إليـه ..وهي - بعـد ذلـك كلـه - كالوجـه البغيـض الذي تسـتر أصبـاغُ التطريـةِ قبحَـه، فيلتبس حاله على الكثيريـن مـن عشـاق الجمـال، ولا يتفطـن لـسره الدفـين إلا مـن عـرف وخـبر، واسـتعمل الحـذر ..

ولذلك كله - ولغيره مما غاب عني ذكرُه - فمسار العلمنة اليوم ماض منطلق لا يكاد يحدّه شيء .. وذلك في كل مكان، حتى في ما يفترض أن يكون حصون الممانعة الأخيرة في وجه العلمانية، أقصد في قلب الحركة الإسلامية بمختلف توجهاتها العلمية والعملية ..

وقـد بينـتُ منـذ نحـو ثـلاث سـنوات في كتـابي "العلمنـة مـن الداخـل"[١]، طرائـقَ تـسرب العلمنـة إلى داخـل التيـار الإسـلامي، فليـس مـن غـرضي أن أعيـد شـيئا مـن ذلـك؛ ولكـن قصـدي في هـذا المقـال أن أبـيّن أن العلمنـة فكـر ينـاقـض المقاومـة، ويفتـك بالممانعـة، ويُسْـلِم الأمـة لأعدائهـا لقمـة سـهلة سـائغة.

العلمانية المفروضة

انبثقـت العلمانيـة في أوروبـا مـن مسـار طويـل، تغـذى بروافـد فلسـفية وسياسـية واجتماعيـة كثـيرة ومختلفـة. ثـم في ظـروف الامبرياليـة الأوروبيـة، انتقـل مسـار العلمنـة بقـوة الحديد والنـار - إلى الأمـة الإسـلامية.فالعلمانية عندنـا فـوق مناقضتهـا الصريحـة للمفهـوم الإسـلامي للديـن، وعلاقتـه بالدنيـا عمومـا والسياسـة خصوصـا - فكـرٌ وافـد، ليسـت له جـذور فلسـفية، ولا امتـداد تاريـخي، ولا مشروعيـة اجتماعيـة ..هي فكـر دخيـل، الغـرضُ الأسـاس منـه: تسـوية نتـوءات الاختـلاف بـين فكـر السـيد وفكـر العبـد؛ أو قـل بعبـارة أخـرى: تذليـل وجـدان العبـد لسـيده بعـد تذليـل جسـده لتكـون عبوديتـه اختياريـة، سـالمة مـن احتمـال التمـرد، ومخاطـر التطلـع إلى التحرر!نعـم.. العلمانيـة تسـعى إلى إلحـاق الأمـة بالغـرب ..والمقاومـة تسـعى إلى تحريـر الأمـة مـن قبضـة الغـرب ..فكيـف يلتقيـان؟!

(١) صدر عن مركز تفكر، عام ١٤٣٦ هـ

العلمانية الأخطبوطية

وليست العلمانية مثل أي فكر آخر ..ليست تنظيرا فلسفيا مودَعا في بطون الكتب، ولا ترفا فكريا متداولا بين أفراد النخبة المثقفة ..إنها تنتشر في كل مكان، وتملأ كل فراغ، وتحكم الدولة، وتشكّل المجتمع، وتصوغ وعي الأفراد ..ولذلك كانت العلمانية في البدء من اختصاص الطبقة الحاكمة في البلاد الإسلامية، يطبّقونها ويدعون إليها، مع ممانعة كثيفة في أغلب مفاصل المجتمع وتياراته العاملة ..ثم انتقل مسار العلمنة إلى قلب التيارات الإسلامية الحركية، عبر مسار المشاركة السياسية الديمقراطية (والديمقراطيةُ في أغلب الصور والحالات - هي المركب الوثير للعلمانية).

ثم وصل الخلل أخيرا إلى علماء الشريعة والدعاة وطلبة العلم، الذين صار الواحد منهم يتباهى عن غير قصد في الغالب - بالتأصيل «الشرعي» لبعض مُخرجات الثقافة العلمانية المهيمنة، مع الرفض النظري للعلمانية (التي صارت ترادف في أذهان الكثيرين محض العداء للدين كما سيأتي في مبحث «العلمانية الملتبسة»)!

ثم سقط أخيرا «تابو» الرفض النظري المطلق للعلمانية عند بعضهم، فرأينا من يكتب بسذاجة - عن الجزء الموافق للإسلام من العلمانية [٢]

وإذا ثبت أن العلمانية تنتشر بهذه السهولة، فإن شباب الأمة الذين يُفترض أن يتشكل وجدانهم - منذ التحاقهم بركب التديّن - بالوعي المقاوِم، واقعون للأسف في براثنها ..وإن العلماء الذين يُفترض أن يُفتوا للمقاوِمين بما يعينهم على التأصيل العلمي لعملهم العظيم، هم أيضا غير سالمين من سطوتها ..بل إن تيارات المقاومة العاملة نفسها، لا يمكنها أن تسلم من أثرها الهدّام إلا بكثير من الحذر واليقظة وبناء الوعي.

(٢) كتب الباحث الشيخ عبد الكريم الدخين في مقال له على الشبكة:"لا علمانية "ناجحة" ولا خروج من الدين "من دون مشكلات" إلا من خلال المتدينين.. هذا ما يخبرنا به التاريخ الحديث سواء في السياق الغربي أو حتى الإسلامي والعربي".

العلمانية السلطانية

تـدّعي العلمانيـة منـذ بـزوغ فجرهـا في أوروبـا الحديثـة أنهـا جـاءت لتحـرّر الإنسـان مـن رق الكنيسـة، ولتعتـق العقـل مـن العبودية لخرافـات الديـن، ولتحـرر الشـعوب مـن سـطوة الملـوك الحاكمـين بالحـق الإلهي.ولكـن حقيقـة الأمـر في بلداننـا على الأقـل على عكـس ذلـك! فـإن العلمانيـين إلا النـادر - يصطفّـون اليـوم مـع الظلَمـة والطغـاة في صـف واحـد، في مواجهـة مـشروعات التحـرر والانعتـاق، الـتي هي - في الغالـب ومنـذ عقـود مـشروعات إسـلامية خالصـة. ولذلـك، تجدهـم يرفعـون شـعارات الحريـة مثـلا (وهي مـن أهـم مكوّنـات الثقافـة العلمانيـة)، ولكنهـا عنـد التطبيـق - حريـةٌ في اتجـاه واحـد، هـو حريـة الكفـر والفسـق ومحاربـة شـعائر الديـن، وليـس فيهـا شيء مـن حريـة امتـلاك الأمـة قرارَهـا السـياسي، ولا حريتهـا في تطبيـق شرع ربهـا بعيـدا عـن ضغـوط أعدائهـا ..

واعتـبِر بأحـوال كبـار دعاة العلمانيـة في بلداننـا، فـإن أغلبهـم ممـن تحتـفي بـه الأنظمـة القائمـة، ويبادلهـا احتفـاء بمثلـه؛ كأنـه زواج مصلحـة بـين الطرفـين، يسـتمد منـه كلاهمـا عوامـل بقائـه وصمـوده أمـام المخالـف!

والطغاة يسعون لبث العلمانية في الأمة، لا لهاجس فلسفي أو حاجة فكرية، بل فقط لاعتباراتِ تحقيق التبعية الكاملة للغرب، ومصادمة فكر مشروعات المقاومة الإسلامية.

العلمانية التسويقية

ممـا يزيـد مـن خطـورة مسـار العلمنـة على فكـر المقاومـة، أن العلمانيـة تسـوّق نفسـها مـن خـلال جميـع وسـائل التسـويق المتاحـة اليـوم في الإعـلام والسـينما وشـبكات التواصـل ومنابـر السياسـة ومحافـل الاقتصـاد، أو قـل: في كل مـكان ..

والعلمانيـة تسـوَّق لنـا - خـارج الإطـار الإسـلامي - على أنهـا الحـل لجميـع المشـكلات الحضاريـة والتنمويـة للعالـم الإسـلامي. بـل صـار بعـض الدعاة الإسـلاميين يسـوّق لهـا مـن جهـة أن قبولَهـا حـلٌّ سـحري لمشـكلات التيـار الإسـلامي نفسـه، الذي يعـاني مـن القمـع الخـارجي والـصراع الداخـلي!

ولـك أن تسـأل: ومـا علاقـة هـذا بفكـر المقاومة؟وجـوابي لـك: أن المشـكلة إذا اقتُرحـت حـلًّا، فَقـدت الحلـولُ الحقيقيـة مكانتهـا ضمـن أولويـات العاملين!فـإذا جعـل المسـلمون - عمومـا والإسـلاميون خصوصـا - وسـيلتَهم لتحقيـق مـا يصبـون إليـه مـن الغايـات ترسـيخَ مبـادئ العلمانيـة، فـإن الوسـائل الأخـرى وعلى رأسـها فكـر المقاومـة يتعـرض للاحتضـار فالاندثـار!

العلمانية الملتبسة

ومن مخاطر العلمانيةِ: التباسُها المفاهيمي في أذهان أهل الخير قبل غيرهم!

وهكـذا كـثرت تعريفـات العلمانيـة وتقسـيماتها وتصنيفاتهـا، كمـا تعـدّدت تبعـا لذلـك مواقـف النـاس منهـا ..فمـن قبـولٍ للعلمانيـة «الجزئيـة» مـع رفـض للعلمانيـة «الشـاملة»، عنـد بعـض المفكريـن المعاصريـن (مـع التبـاس في تعريـف الأُولى، مـا بـين فصـل الديـن عـن السياسـة، وتقريـر مرجعيـة الخـبراء، وغـير ذلـك) ..إلى قبـول العلمانيـة الـتي تسـمح بشـعائر الديـن الظاهـرة (مـن نحـو الحجـاب والصـلاة وتحفيـظ القـرآن ..)، ولـو مـع حـصر الديـن في الدائـرة الفرديـة ورفـض تمـدده إلى المجتمـع والدولـة ..إلى قبـول مكوّنـات العلمانيـة وآثارهـا كالوطنيـة الضيقـة والحريـة المطلقـة ونسـبية الحقيقـة ونحـو ذلـك ..إلى تصريـح بقبـول العلمانيـة مـن حيـث هي، بجميـع أجزائهـا ومكوناتهـا ..

والالتباس المفاهيمي كارثة؛ وذلك أنه إذا التبس الحق بالباطل، وكان الأول (وهو المقاومة والجهاد) عسرا في متطلباته، صعبا في تكاليفه، وكان الثاني (وهو قبول الفكر العلماني وإدماجه في المنظومة الفكرية الإسلامية) سهلا في تطبيقه، مقبولا عند أهل السطوة والسلطة الغالبة: تعلق الناس بالباطل، وتركوا الحق، ولا بدّ!

هـذه بعـض مخاطـر «العلمنـة مـن الداخـل» على مـشروع المقاومـة، الذي يتـوخى تحريـر الأمـة، وانعتاقهـا مـن التبعيـة للغـرب، والعبوديـة لثقافتـه العلمانيـة المهيمنـة.

والله الموفق



تجربة تنظيم أجناد مصر

م. أحمد مولانا

تعـود نشـأة التنظيـم[1] إلى جهـود مؤسسـه «همـام عطيـة» الذي وُلد بسـويسرا عام ١٩٨١، ثـم انتقـل منهـا عام ٢٠٠٢ للعمـل بالسـعودية في مجـال تجـارة الدواجـن، ثـم سـافر إلى العـراق فى عام ٢٠٠٧ للمشـاركة فى مواجهـة الاحتـلال الأمريكـي، ثـم عاد للسـعودية .



همام عطية

بلال صبحي فرحات

رجـع «همـام» إلى مـصر نهايـة عام ٢٠١١ وعمـل مـع صديقـه «بـلال صبـحي» ضمـن جماعـة «أنصـار بيـت المقـدس» كمختصـين في تطويـر المتفجـرات[2] ، وكادت الأجهـزة الأمنيـة أن تلـقي القبـض عليهمـا في كمـين على طريـق الإسـماعيلية القاهـرة الصحـراوي بتاريـخ ٢٠١٢/٩/٩ ، ولكنهمـا تمكنـا مـن الفـرار عقـب اشـتباك مسـلح مـع الكمـين، وتـركا سـيارتهما الـتي عـثرت فيهـا الشرطـة على بطاقاتهمـا الشـخصية وبعض المتفجـرات[3] ، وذهـب همـام إلى مدينـة العريـش فـرارًا مـن الملاحقـات الأمنيـة، إلى أن حـدث الانقـلاب العسـكري فعـاد إلى محافظـة الجـيزة ليؤسـس تنظيـم أجنـاد مـصر.

---

(١) - هذه المعلومات مستقاة من ملف التحقيق مع زوجة «همام عطية» أمام نيابة أمن الدولة العليا ، والذي نشر نصه كاملا موقع اليوم السابع بتاريخ ٢٠١٦/٤/٢١ تحت عنوان (انفراد . اعترافات الزوجة تكشف حقيقة مؤسس «أجناد مصر»)

(٢) - انظر اعترافات قيادي جماعة أنصار بيت المقدس «محمد عفيفي» - اليوم السابع ٢٠١٤/٨/٢٣.

(٣) - اليوم السابع ٢٠١٢/٩/١١.

نجح عطية في ضم عدد من الشباب من خلفيات متنوعة إلى تنظيمه، فكان أحمد سعد الشهير بمالك الأمير عطا عضوًا سابقًا بجماعة الإخوان، بينما كان أحمد جلال[٤] عضوًا بحزب النور، وكان سعد عبد الرءوف[٥] سجينًا سابقًا باليمن لمدة سنتين، بتهمة الانتماء لتنظيم القاعدة، بينما كان جمال زكي مدمنًا للمخدرات[٦].

كون عطية عدة خلايا بنطاق محافظتي القاهرة والجيزة، وقامت هذه الخلايا بنحو ٤٧ عملية خلال الفترة الممتدة من ٢٠١٣ إلى ٢٠١٥م.



منهج التنظيم ومشروعه السياسي

اختلف تنظيم أجناد مصر عن بقية التنظيمات الجهادية الناشئة بعد الانقلاب، بحرصه على إبراز منهجه ومشروعه السياسي وبيان علاقته بالجماعات الأخرى، وموقفه من الأنظمة العربية والغرب والأقليات الدينية والثورة والمظاهرات،

ويمكن تلخيص منهج ورؤية التنظيم وفقًا لتصريحات عطية في حوار إعلامي مطول معه [٧] في النقاط التالية:

*اختير اسم التنظيم تشبهًا بلقب جنود مصر في عهد صلاح الدين وقطز، مما يظهر الحرص على الارتباط الواضح بالأحداث الجارية في مصر دون الارتباط بقضايا مركزية أخرى ،مثل فلسطين التي ارتبط بها اسم جماعة «أنصار بيت المقدس».

(٤) - البوابة نيوز ٢٠١٦/٢/٤.

(٥) - ورد في اعترافات «سعد عبدالرؤوف» أنه حبس باليمن من فبراير٢٠١٢ إلى فبراير٢٠١٤ وعاد إلى البلاد لينضم إلى أجناد مصر في مارس٢٠١٤ - اليوم السابع ٢٠١٤/٧/٢٨.

(٦) - اعترافات جمال زكي– اليوم السابع ٢٠١٤/٧/٢٨.

(٧) - لحوار المفتوح مع المسؤول العام لأجناد مصر: مجد الدين المصري: https://archive.org/details/ajnad-misr

*العدو الخارجي يعتمد اعتماداً كلياً على العدو الداخلي، ويوجهه لضرب أي قوة يحتمل أن تضر باليهود ،ومن ثم فإن ضرب العدو الداخلي بمثابة ضرب للنظام العالمي.

*الأصل في الشعب أنه مسلم ثبت إسلامه بيقين، والتبرؤ من البدع التي تكفر المسلمين بغير حق، ومن اعتبار الطواغيت ولاة أمر شرعيين.

*أزمة المسلمين الحالية تتمثل في وجود أنظمة تنهب وتستنزف ثروات الشعوب، ولابد من السعي لحدوث تغيير شامل باستعمال القوة ،مع رفض المشاركة السياسية في ظل أي نظام يجعل التشريع لغير الله.

*وجوب النصح للجماعات الإسلامية الأخرى ،وبيان الحق والإنكار على الأخطاء، دون التطرق لأشخاص أو كيانات بعينها .

*تأييد ثورة ٢٥ يناير، واعتبار أن المظاهرات وسيلة من وسائل الضغط على النظام خاصة إذا صاحبتها قوة تحميها، وأن المظاهرات السلمية- رغم اعتراض التنظيم عليها- أقل ضرراً من السلبية .

*الأولوية لاستهداف الأجهزة الأمنية باعتبار قتالها من جنس دفع العدو الصائل، والموقف من النصارى مرتبط بموقفهم من المسلمين فإن جنحوا للسلم فلهم البر والقسط.

*الحرص على مخاطبة الناس بما يستوعبونه، مع التركيز على طلاب الجامعات باعتبارهم عماد رئيسي في أي عمل .

رؤية التنظيم واستراتيجية عمله

اعتبر التنظيم أن مصر تتوافر بها ٤ مقومات تساعد على النجاح في مواجهة نظام السيسي، وتتمثل في :النظام، الشعب، الحالة، الأفراد؛ فالنظام في ضعف شديد وهيبته في أقل حالاتها وجرائمه قد كثرت، والشعب به فئة كبيرة لديها ثأر مع الأجهزة الأمنية، فضلًا عن انتشار الجهاد كحالة عامة في العالم الإسلامي، ووجود أفراد على قدر كاف من التجربة والخبرة [٨] ومن ثم عمل التنظيم على شن عمليات مسلحة ضد الأجهزة الأمنية ،مع إعطائه الأولوية لاستهداف ضباط الشرطة.

(٨) - للمزيد ينظر: المصدر السابق.

النشاط الإعلامي

تمثلت الخطة الإعلامية للتنظيم في البدء بفترة تمهيدية اكتفى فيها بإصدار بيانات بتبني العمليات، ونشر أول بيان في ٢٠١٤/١/٢٤ معلنا عن تدشين حملة بعنوان «القصاص حياة» للقصاص من المعتدين الذين نكلوا بالشعب، ثم نشر أول فيديو يضم مقتطفات من عملياته بتاريخ ٢٠١٤/٤/١٧، ثم أعلن عن تأسيس ذراع إعلامي باسم مؤسسة الكنانة بتاريخ ٢٠١٤/١٠/٢٧ثم أعلن في ٢٠١٤/١٢/١٣ عن أسماء قياداته الإعلامية لتسهيل التواصل مع وسائل الإعلام، ثم نشر من خلال مؤسسة الكنانة بتاريخ ٢٠١٥/١/١١ فيديو لحوار مطول مع قائد التنظيم همام عطية، كما نشر التنظيم عبر مؤسسة الكنانة عددا من المقالات التحليلية والتحريضية، مثل (توالي الإقالات واستمرار العمليات) لعبدالرحمن أسامة، و(خطوة لتكون مجاهدا) لمحمد بلال القاهري، و(هل هناك أمل؟) لعلي سعيد.

حرص التنظيم على أن يكون خطابه الإعلامي يبدو هادئًا ملامسًا لمعاناة الجماهير، فركز على إبراز معاني القصاص من القتلة، والدفاع عن المظلومين، مع الابتعاد عن الخطاب الجهادي التقليدي الذي يركز على دمغ قوات الجيش والشرطة بالردة .

الأطوار الثلاثة لتنظيم أجناد مصر

سنتناول بالبحث والدراسة عمليات تنظيم أجناد مصر، وذلك من خلال رصد وتحليل ثلاثة أطوار متتالية مر بها التنظيم:

الطور الأول: منذ الانقلاب حتى مايو٢٠١٤

خلال تلك المرحلة نجح همام عطية في تأسيس خليتين ،وصل مجموع أفرادهما والمتعاونين معهم إلى ٢٠ شخصًا ،وقامت هاتان الخليتان بتنفيذ ٢٤عملية استهدفت التمركزات الأمنية بالميادين الرئيسية، ومعسكرات الأمن المركزي، وسيارات ضباط الشرطة والجيش، مما أسفر عن مقتل ٦ ضباط وأفراد شرطة، بالإضافة إلى مدني واحد وإصابة قرابة ١٠٠ آخرين.

جدول عمليات التنظيم في طوره الأول منذ نوفمبر٢٠١٣ حتى مايو ٢٠١٤

التاريخ	٢٠١٣/١١	٢٠١٣/١٢	٢٠١٤/١	٢٠١٤/٢	٢٠١٤/٣	٢٠١٤/٤	٢٠١٤/٥
عدد العمليات	٢	١	٤	١	٤	١٠	٢

تحليل الخط الزمني لعمليات التنظيم في طوره الأول

نفـذ التنظيـم أولى عملياتـه في ٢٠/١١/ ٢٠١٣ باسـتهداف كمـين عبـود بعبـوة ناسـفة لـم تسـفر عـن وقـوع خسـائر .ثـم تصاعـدت عملياتـه في ذكـرى الثـورة في ينايـر، ثـم زادت وتيرتهـا في شـهر إبريـل لشـعور أفـراد التنظيـم بقـرب وصـول الأمـن لهـم عقـب القبـض في ٢٠١٤/٤/١٥ على يـاسر خضـير، عقـب تفجـيره عبـوة ناسـفة بنقطـة مـرور بشـارع الجـلاء بـالدقي السـاعة ٧ صباحـا أثنـاء خلـو الشـارع مـن المشـاة، إذ شـك سـائق تاكـسي فيـه أثنـاء هروبـه، وقبـض عليـه وسـلمه للشرطـة، والـتي سرعان مـا نجحـت مـن خـلال التحقيـق معـه في القبـض على أغلـب أعضـاء التنظيـم مـا عـدا همـام عطيـة، وكانـت آخـر عمليـة للتنظيـم في هـذا الطـور في مايـو ٢٠١٤، باسـتهداف سـيارة لادا نيفيـا خاصـة بضابـط الاحتيـاط بسـام جامـع بعبـوة ناسـفة بشـارع رمسـيس ممـا أدى لمقتلـه.

الطور الثاني: منذ إعادة بناء التنظيم يونيو ٢٠١٤حتى مقتل زعيمه في إبريل ٢٠١٥

نجـح همـام عطيـة في امتصـاص الضربـة الأمنيـة السـابق ذكرهـا، وضـم عنـاصر جديـدة للتنظيـم ليعـاود نشـاطه مجـددًا ،بعـد أن فصـل الخلايـا الجديـدة عـن بعضهـا، كمـا أوقـف اسـتهداف السـيارات الخاصـة بأفـراد الشرطـة والجيـش نظـرًا لوقـوع ضحايـا مدنيـين في آخـر عمليتـين بهـذا الأسـلوب[٩] ونظـرًا للقمـع الأمـني لطلبـة الجامعـات اسـتهدف التنظيـم التمركـزات الأمنيـة في محيـط جامعـات (القاهـرة، عـين شـمس، حلـوان) وكليـة طـب الأسـنان بالقـصر العيـني، فضـلًا عـن اسـتهداف التمركزات الأمنيـة قـرب الأماكـن السـيادية ،مثـل قـصري الاتحاديـة والقبـة ووزارة الخارجيـة ومجلـس الـوزراء ودار القضـاء العـالي.

جدول عمليات التنظيم في طوره الثاني منذ يونيو٢٠١٤ حتى إبريل ٢٠١٥

التاريخ	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١	٢	٣	٤
عددالعمليات	١	-	-	١	٣	٢	١	٥	٢	٥	١

تحليل الخط الزمني لعمليات التنظيم في طوره الثاني

بـدأ التنظيـم أولى عملياتـه في ٣٠/ ٦ /٢٠١٤ بتفجيرعبوتـين ناسـفتين في خـبراء المفرقعـات أمـام قـصر الاتحاديـة، ممـا أسـفر عـن مقتـل ضابطـين وإصابـة ١٢ آخريـن.

(٩) - في ٢٠١٤/٤/١٥ تم استهداف سيارة خاصة بضابط شرطة بالهرم، مما أسفر عن إصابة شقيقه «إسلام عبدالحفيظ» ومرافق له ، فضلا عن مقتل ضابط الاحتياط السابق «بسام جامع» في ٢٠١٤/٥/٢ بتفجير سيارته ظنا أنها سيارة ضابط جيش بالخدمة.

ثـم كمـن التنظيـم بعـد هـذه العمليـة لإعادة بنـاء خلايـاه، ثـم عاد في ٢٠١٤/٩/٢١ بتفجـير عبوة ناسـفة في تمركـز أمـني أمـام وزارة الخارجيـة ممـا أسـفر عـن مـصرع ضابطـي شرطـة وإصابـة ٦آخريـن، ثـم تزايـدت عمليـات التنظيـم في ينايـر ٢٠١٥ بمناسـبة ذكـرى الثـورة ، وكانـت آخـر عمليـة للتنظيـم صبـاح يـوم ٢٠١٥/٤/٥ باسـتهداف نقطـة مـرور أعلى كوبـري ١٥ مايـو ، ليبلـغ إجمـالي عـدد العمليـات الـتي قـام بهـا في طـوره الثـاني ٢١ عمليـة أسـفرت عـن مقتـل ٦ ضبـاط وفـردي شرطـة واثنـين مـن المواطنـين ،فضـلًا عـن إصابـة العـشرات مـن ضبـاط وأفـراد الشرطـة.

انكشاف التنظيم للمرة الثانية

تمكـن عامـل بمقـهي مـن القبـض على إسـلام شـحاتة [١٠] يـوم ٢٠١٥/٣/١١ أثنـاء وضعـه لقنبلـة قـرب تمركـز أمـني بجـوار مجلـس الـوزراء، كمـا قامـت إحـدى خلايـا التنظيـم دون تنسـيق مـع قيادتـه [١١] في ٢٠١٥/٣/٢٥ باسـتهداف قـوات تأمـين سـفارة الكونغـو ،فقبـض الأهـالي على اثنـين مـن منفـذي الحـادث ،ومـن خـلال التحقيـق معهـم وصلـت الأجهـزة الأمنيـة لمعلومـات مهمـة عـن التنظيـم في طـوره الجديـد، ثـم كانـت الضربـة الأمنيـة الكـبرى باقتحـام مقـر إقامـة همـام عطيـة و قتلـه بتاريـخ ٢٠١٥/٤/٥ والقبـض على زوجتـه وأولاده التسـعة ،وذكـرت زوجـة همـام في التحقيقـات بنيابـة أمـن الدولـة أن الأمـن اقتحـم الشـقة وقبـض على همـام حيّـا قبـل أن يقتلـه [١٢] وأصـدر فـرعا تنظيـم القاعـدة بالمغـرب الإسـلامي وجزيـرة العـرب بيـاني نـعي لهمـام.

الطورالثالـث: منـذ مقتـل مؤسـس التنظيـم وصـولًا إلى مقتـل القائـد الجديـد للتنظيـم وتصفيـة أفـراده -إبريـل ٢٠١٥ إلى إبريـل ٢٠١٦:

نـعى التنظيـم همـام عطيـة في بيـان أصـدره بتاريـخ ٢٠١٥/٤/٩ وأعلـن اختيـار عزالديـن المـصري قائـدًا جديـدًا للتنظيـم، ونفـذ التنظيـم في طـوره الثالـث عمليتـين بواسـطة العبـوات الناسـفة:

٢٠١٥/٧/١٢ اسـتهداف تمركـز أمـني في روكـسي ، ونتـج عـن الحـادث إقالـة مديـر أمـن القاهرة أسـامة بديـر لوقـوع مشـادة بينـه وبـين وزيـر الداخليـة أثنـاء تفقـده لموقـع الحادث.

٢٠١٥/٨/١٠ استهداف نقطة مرور بمصر الجديدة مما أسفر عن مقتل عقيد شرطة.

---

(١٠) - انضم «إسلام شحاتة» للتنظيم في شهر أكتوبر ٢٠١٤

(١١) - اعترافات منفذ الحادث «محمد عادل عبدالحميد»- اليوم السابع ٢٥ /٢٠١٦/٤

(١٢) - نص التحقيقات مع زوجة همام عطية - مصدر سابق.

تصفية التنظيم

أعلنت الأجهزة الأمنية خلال الفترة الممتدة من ٢٠١٥/٧/٢٦ حتى ٢٠١٦/٤/٢ عن تصفية ١٥ عنصر من التنظيم - على رأسهم قائده الجديد عزالدين المصري- أحمد جلال، في ٧ مداهمات لتسدل الستار على التنظيم، فتوقفت عملياته ولم تصدر عنه أي بيانات إعلامية لاحقًا، ويذكر أن آخر بيان أصدره التنظيم كان في ٢٠١٥/٧/٢٩ أعلن خلاله أن «مالك الأمير عطا» الذي أعلن الأمن مقتله في ٢٠١٥/٧/٢٦ رفقة شخص آخر أثناء مداهمة محل إقامتهما بمنطقة فيصل سبق له أن ترك الجماعة بعد أن عمل معها فترة. وجدير بالذكر أن زوجة همام عطية قالت إن «مالك» هو الشخص الذي أجرى حوارًا مع زوجها ونشره التنظيم بعنوان (الحوار المفتوح مع المسؤول العام لأجناد مصر مجد الدين المصري).

التوزيع الديموغرافي لعناصر التنظيم

من خلال التحليل الديموغرافي للبيانات الخاصة بأعضاء التنظيم المحالين للمحاكمة في القضية رقم ٢٠١٤/١٠٣ حصر أمن دولة عليا، والبالغ عددهم ٤٢ فرد بالإضافة إلى ١٥ آخرين أعلنت الداخلية عن تصفيتهم ، نحصل على النتائج التالية:
متوسط العمر لأفراد التتظيم: ٣٠ عامًا.

التوزيع الجغرافي

المحافظة	الجيزة	القاهرة	الشرقية	القليوبية
العدد	٣٠	٢٤	٢	١

التوزيع المهني(١٣):

١٣ طالب، ٧ مهندسين، ٤ عاطلين، ٣ موظفين، ٢ سائقين، ٢ عاملين، ١ صيدلي، ١ صاحب ورشة حدادة، ١ صاحب معمل أسنان، ١ تاجر خضروات، ١ مدرس، ١ خراط معادن، ١ صاحب مصنع ملابس، ١ نجار، ١ ترزي، ١ صاحب محل موبايلات.

(١٣) أمكن الحصول على معلومات عن مهن ٤١ فرد من أعضاء التنظيم.

ومـن خـلال تحليـل بيانـات عناصرالتنظيـم نجـد أنهـم تمركـزوا بالقاهـرة والجـيزة، وهى الأماكـن الـتي نفـذ فيهـا التنظيـم عملياتـه ، ومثـل طلبة الجامعـات العنـصر الأبـرز في التنظيـم، يليهم المهندسـون نظـرًا لاهتمـام التنظيـم بتصنيـع العبـوات الناسـفة ومسـتلزماتها.

تحليل تجربة تنظيم مصر

تنظيـم أجنـاد مـصر تنظيـم جهـادي نشـأ على أرضيـة عقديـة، واعتـبر قتـاله للنظـام مـن جنـس دفـع الصائـل والقصـاص مـن المعتديـن، واتسـم بتجميعـه لأفـراده حـول القواسـم المشـتركة، والابتعـاد بهـم عـن الـنزاعات بـين الجمـاعات الجهاديـة الأخـرى .

أدى تمركـز نشـاط التنظيـم بنطـاق محافظـتي القاهـرة والجـيزة واسـتهدافه للتمركـزات الأمنيـة بالقـرب مـن الأماكـن السـيادية والحيويـة إلى إرهـاق الأجهـزة الأمنيـة ،فضـلًا عـن تسـليط الأضـواء الإعلاميـة بكثافـة على عملياتـه بالرغـم مـن محدوديـة الخسـائر البشريـة الناتجـة عنهـا.

لـم يتمكـن التنظيـم رغـم خطابـه الإعـلامي الهـادئ مـن توظيـف حالـة التعاطـف الشـبابي معـه ، نظـرًا لضعـف هيكلـه التعبـوي وصعوبـة التواصـل المبـاشر بينـه وبـين مؤيديـه.

لـم يمتلـك التنظيـم مقومـات ماليـة وبشريـة تمكنـه مـن إكمـال خـوض صراع أمـني مـع نظـام بحجـم النظـام المـصري، وبالتـالي تفـكك التنظيـم خـلال ٣ سـنوات مـن إنشـائه، فصغـر حجـم التنظيـم أدى لعـدم قدرتـه على تحمـل الضربـات الأمنيـة المتتاليـة ضـده ، وضعـف مـوارده الماليـة أدى لضعـف التسـليح واسـتئجاره شـقق لإيـواء عنـاصره الهاربـة في أماكـن شـعبية يسـهل فيهـا رصـد الغربـاء، كمـا تبـنى التنظيـم اسـتراتيجية تعتمـد على اسـتهداف قـوات الشرطـة وبالأخـص الضبـاط بطريقـة عشـوائية، بينمـا تعدادهـم يبلـغ قرابـة ٤٠ ألـف ضابـط، ويسـهل تعويـض الخسـائر في صفوفهـم.

ضعـف الجانـب الأمـني لدى التنظيـم في طـوره الأول، ومعرفـة أفـراده لبعضهـم البعـض، سـهل انكشـافه بمجـرد القبـض على أحـد عنـاصره، ووجـود قياداتـه داخـل مـصر سـهل اكتشـاف العديـد مـن خلايـاه مـن خـلال فحـص أجهـزة الكمبيوتـر والهواتـف الخاصـة بهـم بعـد تصفيتهـم .



علوم محرمة على المسلمين (١)

م. أحمد بكر

النية بحول الله أن تتناول هذه السلسلة مجموعة من العلوم والتخصصات التي تدعو الحاجة إليها بشدة في عصرنا الحالي، موجهة لأبناء الأمة المخلصين كي يشحذوا الهمم ويجبروا النقص والقصور؛ حيث إن تعلم هذه العلوم يعد من فروض الكفاية التي إن أهملتها الأمة جميعًا أثمت، مع العلم أن فرض الكفاية أفضل من فرض العين كما قال بذلك بعض الأئمة لإسقاط القائم به الحرج عن باقي الأمة.

والعلوم التي سأتناولها في هذه السلسلة هي:

إدارة الأزمات والكوارث (Crisis, Risk, and Disaster Management)

نظم المعلومات الجغرافية (Geographic Information Systems)

علم البيانات (Data Science)

هندسة الطيران (Aerospace engineering)

وهذه التخصصات بالطبع ليست كل ما ينبغي تغطيته؛ فهي على سبيل الإيراد لا الحصر؛ لأن نهضة الأمم لا تقوم بالتركيز على علم دون باقي العلوم؛ بل تقوم بتكامل العلوم والتخصصات جميعًا بين بعضها البعض، نظرية كانت أم تطبيقية.

في أول مقال في هذه السلسلة أتناول تساؤلًا مهمًّا قد يخطر في بالنا جميعًا ألا وهو كيف تستفيد الأمة من الجهود المشتتة هنا وهناك، وهل يسمح لنا أعداؤنا بامتلاك عوامل النهضة ابتداء؟ وهل تترك لنا حرية البحث العلمي بحيث ينتج عنها ما يساهم في دفع الخطر المحدق بالأمة؟

نعود إلى الوراء - ليس بعيدًا - ولن نتحدث عن أمجاد من الماضي السحيق، وكيفية نهوض الحضارة الإسلامية؛ بل نكتفي بالعودة بضع عشرات السنين، وتحديدًا ألمانيا في العام ١٩١٩ حين توقيع معاهدة فرساي.

وألمانيا في العصر الحديث مرت بنهضتين عظيمتين جاءتا بعد حربين لا تقل إحداهما عنفًا عن الأخرى، شملت مناطق واسعة من الكوكب وقتل فيهما ملايين البشر، لكن سبب اختياري لمرحلة النهضة بعد الحرب الأولى أن ألمانيا نهضت بعدها صناعيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا بشكل استقلالي أتاح لها بدأ حرب أخرى بعدها في أقل من ثلاثين عامًا فقط، أما الحرب الثانية فخرجت منها ألمانيا مستئنسة بسبب خطط الحلفاء وخاصة أمريكا لبناء ألمانيا جديدة لا تعادي الغرب؛ بل تكون في القلب منه وحاملة لأفكاره.



نبدأ من انتهاء الحرب العالمية الأولى، الإمبراطورية الألمانية محطمة حرفيًّا بعد حرب كونية حصدت أرواح ملايين البشر، من مقاتلين ومدنيين، ودمرت مدنًا بأسرها، وظهر في نفس الوقت لسوء حظ البشرية وباء الأنفلونزا الذي قتل الملايين أيضًا. بعد هزيمة ألمانيا في الحرب قام الحلفاء المتمثلون في بريطانيا وفرنسا وأمريكا وروسيا، بإجبار ألمانيا ودولة الخلافة العثمانية - باعتبارهما أبرز أعضاء دول المحور - على القبول باتفاقات (معاهدتي سيفر وفرساي) أقل ما يقال عنها إنها مهينة. ما بين تفكيك لأراض تحت سيطرتها، وفرض تعويضات باهظة (وباهظة هنا قد لا تعبر عن فداحة التعويضات التي طولبت بها ألمانيا فقد وصلت إلى ما يعادل مئات مليارات الدولارات بأسعار اليوم)، انتهاء بفرض قيود على التسليح وإعداد الجيش الألماني (ألا يذكرك هذا باتفاقية كامب ديفيد؟).

ما يتعلق بالجيش كان الهدف هو منع ألمانيا من النهوض بقوتها العسكرية والانتقام من الحلفاء مرة أخرى؛ مما دفع الحلفاء لفرض قيود على الجيش الألماني سواء في العتاد أو العدد، ومن هذه الشروط:

- ألا يزيد الجيش الألماني عن ١٠٠ ألف مقاتل، مقسمين على سبع وحدات مشاة وثلاثة للضباط.
- تقليل عدد المدارس العسكرية للضباط إلى ثلاث، واحدة لكل سلاح.
- ألا يزيد سلاح البحرية عن ١٥ألف جندي وضابط.
- الجنود وضباط الصف يحالون إلى التقاعد بعد ١٢ عامًا، والضباط بعد ٢٥ عامًا بحد أقصى؛ لتفريغ الجيش من الخبرات العسكرية.
- تقليل عدد المدنيين في صفوف الجيش والشرطة.
- منع الصناعات العسكرية المتعلقة بالطائرات، والدبابات، وناقلات الجنود، والمركبات العسكرية.
- تقليل عدد القطع البحرية، من مدمرات، وسفن قتالية، ومنع امتلاك الغواصات.
- حرمان ألمانيا نهائيًّا من سلاح الطيران.

المدهش أنه بالرغم من الرقابة اللصيقة على ألمانيا، نجحت كما العنقاء بالنهوض مجددًا من بين رماد خرائبها، وبناء قوة عسكرية واقتصادية وعلمية مكنتها من إخضاع أوروبا باسرها في خلال بضع سنوات، لذا سنستعرض كيف أفلت الألمان من الرقابة الدولية عليهم، وكيف بنوا جيشهم الذي بدأ به الرايخ الثالث الحرب العالمية الجديدة، تحت قيادة هتلر، وما سبقه من نهضة شاملة اقتصادية وعلمية.

بدأ تسليح الجيش الألماني مباشرة بعد انتهاء الحرب، في خلال بداية فترة ما يعرف بجمهورية فايمار Weimarer Republik ، ومع تولي المستشار الألماني هيرمان مولر (Hermann Müller) بدايات ١٩٢٠ حيث أقر عددًا من القوانين للسماح بالتسليح السري. وحتى عام ١٩٣٣ كانت جهود التسليح وتطوير الجيش سرية ومحدودة إلى حد ما، ومدعومة من قبل القوميين الألمان الذين نظروا إلى معاهدة فرساي ومسألة التعويضات التي طولبت بها ألمانيا، كوسيلة من بريطانيا وفرنسا لإنهاء التأثير الاقتصادي الألماني العالمي.

وكانت نظرة الألمان هي بناء القوة العسكرية ببطء يتيح لألمانيا العودة لنشاطها الاستعماري الذي تم الحد منه، والوصول لنقطة قوة، بحيث تعجز قوى الحلفاء عن إجبار ألمانيا على الرضوخ لمعاهدة فرساي مرة أخرى ومن ثم إلغائها.ومن الأمثلة على التدابير السرية التي تم اتخاذها في عهد جمهورية فايمار، السماح بتدريب

قوات الشرطة تدريبًا عسكريًّا، بحيث تصبح قوة احتياطية للجيش الألماني، كنوع من التحايل على القيود التي وضعتها معاهدة فرساي، مع التساهل في تسليح الميلشيات، وتزامن ذلك مع ظهور العديد من الميليشيات الشعبية المسلحة.



بعد استيلاء الحزب النازي على السلطة بقيادة هتلر في عام ١٩٣٣تم اتباع خطوات أكثر تسارعًا ووضوحًا لإعادة تسليح الجيش الألماني؛ حيث وعد الحزب النازي باستعادة أمجاد الأمة الألمانية مهاجمًا الحكومات التي قبلت بمعاهدة فرساي من قبل، واستعادة ألمانيا لقوتها ومكانتها وتوحيد الشعوب الناطقة بالألمانية، وترأس هتلر نهضة توسعية ضخمة في مجال الإنتاج الصناعي والخدمات المدنية، بالإضافة للإنتاج العسكري، وكان رهان ألمانيا أن الحلفاء لن يجرؤوا على البدء بحرب لإيقاف سباق التسلح، وسيكتفون فقط بالتنديد والتهديد. وهو ما كان.

كان من أبرز الشخصيات تأثيرًا في بداية ظهور الرايخ الثالث هو وزير الداخلية فيلهلم فريك، والاقتصادي هجلمار شاخت، الذي قدم توصياته لإزالة آثار الكساد الاقتصادي في ألمانيا بسبب الحرب وتوابعها. تم إنشاء العديد من الشركات الاقتصادية الوهمية لتكون واجهة لتمويل مجهودات إعادة التسليح، وأيضًا إنشاء منظمات وهمية كمنظمة دويتشه فيركرسفليجيرشول (Deutsche Verkehrsfliegerschule)، التي أُنشئت لتدريب الطيارين الألمان تحت ستار مدني. أدت هذه الطفرة التسليحية إلى حدوث سباق صناعي كانت من آثاره اختفاء البطالة خلال الثلاثينيات، بالإضافة لإنعاش المصانع الألمانية الذي أدى بدوره إلى انتشال ألمانيا من الكساد الذي ظلت تعاني منه. في ١٦ مارس ١٩٣٥ أعلن هتلر بشكل علني عن رفضه للقيود العسكرية في معاهدة فرساي، وإعادة التسليح الكامل غير المشروط للجيش.

كان سباق التسلح حافزًا للعديد من الشركات لتقديم حلول مبتكرة وثورية في مجال الصناعات الحربية والمدنية على حد سواء، خصوصًا في مجال علوم الطيران.

وكانت الحرب الأهلية الإسبانية ١٩٣٦-١٩٣٩ فرصة جيدة لاختبار الأسلحة الألمانية الجديدة وكفاءتها على أرض المعركة، بعد تحالف الجنرال فرانكو مع ألمانيا ضد الجمهوريين، وهتلر كان يصف نيته بأنها كانت سلمية ولا تنوي إدخال ألمانيا في حرب جديدة؛ لذا تم إطلاق اسم ساخر على استراتيجيته هذا باسم حرب الزهور (Blumenkrieg).

كل هذه الجهود التي تكللت بنجاح عظيم أدت بهتلر للزهو فخرًا خلال خطابه في برلين في ٢٦ سبتمبر١٩٨٣ : "لقد قمنا بإعادة التسليح بشكل لم يشهد له العالم مثيلًا من قبل». حيث وصل عدد تعداد الجيش الألماني من ١٠٠ ألف فقط إلى اثنين ونصف مليون من الجنود والضباط.

ويمكن تلخيص أسباب نجاح التجربة النازية في النهوض بألمانيا في النقاط التالية:

- وجود ظلم حقيقي ومتسلط ومهين تم تطبيقه بشكل مستفز، غذى روح الانتقام لدى الألمان شعبويًّا.
- وجود قيادة عسكرية وسياسية وطنية استغلت حالة الإحباط الشعبي لبناء الدولة من جديد.
- وجود كفاءات علمية واقتصادية، وتوظيفها بشكل صحيح من قبل القيادة.
- عدم الإذعان للتهديدات والاملاءات الخارجية أو الاستسلام لها.
- انتهاج السرية لحين الوصول لمرحلة التمكين والاستعلان بالأهداف الحقيقية المبنية على قوة تحميها.
- وجوب اتخاذ اجراءات حاسمة من قبل جيل الشباب لإزاحة الأجيال العجوزة، التي قد تكون وطنية لكن بالرغم من ذلك قد يحول ترددها في اتخاذ قرارات مهمة في مرحلة فاصلة إلى تمكين العدو من أهدافه.
- نهضة أي أمة يجب أن تبنى على عقيدة ولو فاسدة في جوهرها، لأن الإيمان في حد ذاته بالأفكار يجعل من السهل القبول بتضحيات في سبيل تحقيق تلك الأفكار.

لذا يمكنني ختام هذه المقالة بالقول بأن التحرر من التبعية للقوى الاستعمارية ليس بالأمر الهين، ولكنه ليس مستحيلًا كما رأينا من التجربة الألمانية؛ لكن هو كأي شيء آخر لا بد له من توافر شيئين مهمين، الإرادة والوسيلة. فإن توفرت إحداهما دون الأخرى فإن الفشل المحقق سيكون مصير التجربة ولا ريب.



مصادر

- https://en.wikipedia.org/wiki/Treaty_of_Versailles
- https://en.wikipedia.org/wiki/German_re-armament
- Hitler›s Soldiers: The German Army in the Third Reich, by Ben H. Shepherd
- .Luftwaffe, the Secret Bombers of the Third Reich
- The Rise and fall of The Third Reich, by William L. Shirer
- The Third Reich in Power, by Richard J. Evans
- Dark Side of the Moon: Wernher von Braun, the Third Reich, and the Space Race, by Wayne Biddle
- German Secret Weapons of the Second World War: The Missons and New Technology of the Third Reich, by Ian V. Hogg
- Scientists under Hitler: Politics and the Physics Community in the Third Reich, by Alan D. Beyerchen
- Hitler›s Engineers: Fritz Todt and Albert Speer, Master Builders of the Third Reich, by Blaine Taylor
- Gun Control in the Third Reich: Disarming the Jews and «Enemies of the State», by Stephen P.
- كتاب كفاحي، لادولف هتلر، المكتبة الأهلية بيروت.



متى نكسر الحصار الفني

د. عمرو كامل

للعدالة وجه جديد Justice has a new face **شعار تصدر أحد البوسترات الدعائية لأحد أنجح أفلام هوليوود، هو فيلم ديدبول** Deadpool **، الصادر في فبراير عام ٢٠١٦ عن شركة (مارفل كوميكس)، والذي يروي قصة وايد ويلسون الشاب الذي أنهى خدمته العسكرية ليعمل بعد ذلك كمرتزق شرس يتباهى بقتله ٤١ شخصًا، وذلك قبل تحوله لديدبول الخارق ويضاعف عدد قتلاه بأبشع الطرق والوسائل، والذي يقول عن نفسه في بداية الفيلم: (أنا لست بطلاً، ولن أكون أبدًا كذلك، أنا مجرد رجل سيئ يتلقى أجرًا لضرب رجل أسوأ).**

وفي أغسطس من العام نفسه أصدر المنافس العتيد لمارفل (دي سي كوميكس) فيلم الفرقة الانتحارية Suicide Squad ، والذي يروي قصة مجموعة من أعتى الأشرار المحتجزين في سجن شديد الحراسة، وتستعين بهم الحكومة الأمريكية في العمليات السرية ضد الأخطار التي تهدد الأمن القومي الأمريكي، وذلك في مقابل تحقيق رغباتهم وتحسين أوضاعهم داخل السجن. ولقد وصف البوستر الدعائي للفيلم أعضاء هذا الفريق بأنهم (أسوأ الأبطال على الإطلاق) The Worst Heroes Ever

أما في عالم الأطفال، فتعتبر سلسلة أفلام أنا الحقير Despicable me بأجزائها الثلاثة من أنجح أفلام الأنيميشن التي عرضت مؤخرا، لبطلها (جرو) الشرير اللطيف، والذي تقوم على خدمته كائنات (المينيونز) الصفراء المحبوبة التي بلغت شهرتها الآفاق، وباتت علامة تجارية رائجة لمنتجات كثيرة لمختلف الأعمار،

حتى أنه صدر في ٢٠١٥ فيلم خاص بالمينيونز يحكي كيف نشأوا في بداية الخلق ككائنات أولية صفراء، لها مهمة وحيدة هي خدمة أعظم الأشرار على مر التاريخ.

وكان لرالف المدمر في فيلم أنيميشن ديزني Wreck it Ralph الصادر عام ٢٠١٢ عبارة ترددت في أكثر من موضع في الفيلم: (أنا شرير، وهذا جيد، أنا لن أكون طيبًا أبدًا، وهذا ليس سيئًا، لا أرغب أن أكون أحدًا غيري).

I'm bad, and that's good. I'll never be good, and that's not bad, there's no one I'd rather be than me.

نستطيع من هذه الأمثلة المتقاربة زمنيًّا ملاحظة توجهًا عامًّا في عالم هوليوود يستهدف مختلف الفئات العمرية، ويهدف إلى إيصال رؤية مغايرة لمعايير الخير والشر، وتوظيفها في عدة أغراض مختلفة (سياسية، اقتصادية، اجتماعية...)، في عالم (ما بعد حداثي) جديد تفكك من كل القيود الأخلاقية وتحلل من كل الثوابت.

وإشكالية (ما وراء الخير والشر) قد طرحها قديما الفيلسوف المجنون فريدريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠)، وذلك بعد إعلانه موت الإله، وتبشيره بميلاد الإنسان الأعلى (سوبرمان) الجديد[١] الذي يفرض أخلاقه وأفكاره وكل ما يحلو له بالقوة[٢]، ويضع لنفسه المعايير الخاصة بالخير والشر، في عالم دارويني شمولي البقاء فيه للأصلح، حيث يتساءل نيتشه: «ألا يمكن قلب كل القيم؟ والخير ألا يكون هو الشر؟ والإله مجرد ابتكار، مجرد خدعة شيطان؟ ألا يحتمل أن يكون كل شيء خطأ؟»[٣]. وقد تنبأ نيتشه قبل موته بأن أفكاره لن تنتشر سريعًا في حياته، ولكنها كالديناميت الذي سينفجر في وقت لاحق ويغير ملامح الكون، وقال حينها: «فأنا لست إنسانًا، بل عبوة ديناميت»[٤].

تغلغلت هذه الأفكار في الوعي الغربي ببطء شديد جدًّا استمر لمدة سنوات طويلة تعود بجذورها إلى العصور الوسطى الظلامية، تعرَّض فيها الإنسان لصدمات دينية وعلمية وعقلية وأخلاقية عنيفة، توجتها الحروب

(١) نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، ص٦، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، ١٩٣٨

(٢) نيتشه: ما وراء الخير والشر، ص٣٧، دار الفارابي

(٣) نيتشه: إنسان مفرط في إنسانيته، ص١٢، دار أفريقيا الشرق، ط. ٢٠٠٢

(٤) نيتشه: هذا هو الإنسان، ص١٥٣، منشورات الجمل

العالمية وما نتج عنها من خراب ودمار كبيرين، أديا بالإنسان الغربي إلى سقوطه من علوه ومكانته السامية ومركزيته الكونية التي طالما اعتقد فيها، وهروبه وانزوائه في هدوء إلى هامش الكون والحياة متنحيًا عن احتكار أي تفسير أو ثابت من الثوابت طالما كان يدَّعي حق امتلاكه، اللَّهُمَّ إلا شهوة القوة والأحلام الإمبريالية التوسعية التي لازمته منذ قديم الأزل، والتي كبح جماحها -ظاهرًا- بزوغ عهد الديمقراطية وشعارات احترام الإنسان والرأي والحقوق.

ولذلك، خروجًا من هذا المأزق الأخلاقي الظاهري، كان على الإنسان الغربي لقضاء وطره ولإشباع رغبته تلك، سلوك طريقٍ آخرَ أكثر نعومة وأقل صَخبًا، طريق يجعله في حل من اللوم بانتهاك الحقوق وسفك الدماء وما إلى ذلك، بدعوى أن هذا شر أدنى ضروري للقضاء على شر أعلى يهدد المجتمع الديمقراطي والبشرية، تحت مسمى مكافحة الإرهاب وما شابه ذلك.. وهذا الطريق هو طريق الوعي والأفكار.

وحرب الأفكار هذه لها مستويان: مستوى نخبوي؛ تغلب عليه الكتب والتنظيرات والجدليات والفلسفات، وموضعه تحت القباب وفي ساحات المناظرات.. ومستوى آخر شعبوي؛ ويغلب عليه القيل والقال والقصص والروايات، وموضعه في الفضائيات وعلى الشاشات، وبين دفات المجلات والروايات..

وهذا الأخير بطبيعة الحال هو الأكثر نفوذًا وشيوعًا ورواجًا؛ فلو أننا طرحنا سؤالًا عمليًّا وقلنا:

- كم منا يعرف عن فلسفة ما بعد الحداثة ودقائق أفكار نيتشه أو فوكو أو دريدا المهيمنة على الفكر الغربي؟

- كم شخصًا على مستوى العالم كله قرأ كتبهم، أو استوعب تنظيراتهم؟

وفي المقابل:

- كم منا يعرف فيلم كذا أو رواية كذا؟

بالإجابة عن هذا السؤال يَتبين لنا مدى تأثير الفن والإعلام وتوغلهما في القطاع الأعرض من الناس، واستحواذه على قلوبهم وعقولهم على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم.. وعليه يتبين كيف أنه باختصار سلاح خطير في يدِ مَن يُجيد استخدامه وتوجيهه، تستطيع النخب الفكرية من خلاله الخروج من هذا المأزق

الأخلاقي الديمقراطي (بشياكة)! بل وتجنيد جحافل من المبشرين بهذه الأفكار طواعية ودون مقابل، فماذا بعد الاستحواذ على القلوب والعقول؟ ماذا أفضل من الدعم التلقائي والتحيز غير الواعي؟



تدبَّر جواب الروائي والفيلسوف الإيطالي (أومبرتو إكو)، حينما سألته الكاتبة الفرنسية ذات الأصل الإيراني (لِيلا أزام زانجانيه) عام ٢٠٠٨ عن عبارته المشهورة «الأشياء التي نعجز عن التنظير لها، يجب أن نسردها في رواية»، حيث قال: «أظنني عبّرتُ عن أفكاري بشكل أوضح في رواية (بندول فوكو) أكثر مما فعلته في مقالاتي الأكاديمية. كل فكرةٍ مهما بدت أصيلة، تأكد بأن أرسطو توصل لها قبلك. لكن كتابة رواية حول تلك الفكرة ستجعلها تبدو أصيلة ومبتكرة. (مثلاً) الرجال يحبون النساء، هذه ليست بفكرة أصيلة، لكن، لو استطعت بشكل ما أن تكتب رواية رائعة عن هذا المعنى، حينها بخدعة أدبية ساحرة ستتحول إلى فكرة مبتكرة. في نهاية الأمر، وبكل بساطة، أؤمن أن القصة أكثر ثراءً؛ لأنها فكرة يُعاد تشكيلها إلى حدث، تحكيه شخصيات القصة، ويُسرد بلغة محبوكة. لذا بطبيعة الحال، حين تتحول الفكرة لكائن حي، تصبح شيئًا مختلفًا تمامًا: كِيانًا له القدرة على التعبير.

من الناحية الأخرى، التناقض قد يكون من أساس الرواية. فقتل شخصية امرأة طاعنة في السن يبدو ممتعًا. إنما بفكرة كهذه، ستنال معدل (هـ= راسب) في امتحان علم الأخلاق. لكن في الأدب ستنال على (الجريمة والعقاب) تحفة فنية من النثر، الشخصية فيها تتساءل إن كان قتل امرأة طاعنة في السن أمرًا جيدًا

أم سيئًا، الحيرة في أفكار الشخصية -مع تضارب آرائنا نحن- حينها تغدو مسألة شاعرية وتحديًا كبيرًا»(٥).

فلا عجب إذن حينما يقع الفن والآلة الإعلامية بشكل أعَم في براثن من يجيد إدارة دفته وتوظيفه واستثماره وجني ثماره لصالحه، ولا عجب أن يصبح مدار صراع هائل تتنازع فيه كيانات اقتصادية ضخمة، وحكومات، ونخب فكرية، وتسخيره ليكون آلة حرب أقل كلفة وخسارة، وتحرر الطموح الاستعماري الإنساني الفطري من أغلاله، بل وتُزيل عنه الحرج الأخلاقي، فما يضر في غزوة بلا سلاح أو دماء، وساحتها ببساطة هي (الوعي الشعبي)؟!

عمليًّا، وبعيدًا عن المثالية، أو الرومانسية الأخلاقية، لا يوجد في قاموس الإعلام ما يُعرف بـ (الإعلام المحايد) أو غير المؤدلج؛ فوسائل الإعلام المختلفة هي الآلة التي يَستخدمها صاحب الرسالة أو الأيديولوجيا لنشر أفكاره أيًّا كانت، وثمة فرق -نظريًّا- بين الخبر والرأي؛ فنقل الخبر هو الذي يُشترط فيه الحِياد، أما الرأيُ؛ فلا يُشترط فيه ذلك. وكون إعلام الرأي ليس حياديًّا ليس عيبًا في ذاته، إذا كانت الساحة مفتوحة والمُعترك شريفًا، إلا أن هذا ليس ما يحدث عادةً في العالم الدارويني النيتشوي الشمولي؛ حيث التضييق الواضح على الآخَر، ومُصادرة رأيه، وتجفيف منابعه الفكرية والخبراتية والمالية.

نحن في عالمنا العربي والإسلامي في مرحلة صعبة ولا شك؛ فالمبدع البارز المتصدر صاحب الإمكانيات والموارد هو من يخدم المسار الغربي ذاته وبتسهيلات منه، أما من يقاوم؛ فهو أشبه بمن ينحت في الصخر.. في الإمكان أن نصلَ إلى نتيجة إيجابية أينعم، ولكن بعد عناءٍ شديدٍ وعوائقَ كبيرةٍ. يجب على (المشتغلين) بهذا المجال في سبيل تحقيق ذلك الصبر والمصابرة، والتطوير والإبداع والمواكبة. وأما (المنشغلون) بهذا المجال غير المشتغلين به؛ فيجب عليهم -على أقل تقدير- التحصُّن بالحد الأساسي من الثوابت العقَدية والأخلاقية، التي يَستطيعون من خلالها التمييز بين الخطأ والصواب، وحفظ أبنائهم وصيانة مجتمعاتهم.

وقياسًا: أتصور أن المنافسة في مجال أفلام الرسوم المتحركة هو السبيل الأنجح لاقتحام عالم الأفلام والمسلسلات والسينما بقوة؛ فهي وسيلة -رغم تكاليفها الضخمة التي يجب أن يتحملها شرفاء المستثمرين-، وسيلة تُزيل الحرجَ عن الكثير من المبدعين المحترفين، عن التحفظ في إخراج المشاهد العائلية والمنزلية الخاصة والمختلطة، ليخرج المنتج أكثر تأثيرًا وعاكسًا للواقع.

(5) Umberto Eco, The art of Fiction No.197, interviewed by Lila Azam Zanganeh, The Paris Review, Summer 2008, No.185, www.theparisreview.org

ولا شك أنَّ وسائل التواصل الاجتماعي صارت خطوة أساسية على الطريق؛ فهي الأسهل، والأقل تكلفة، والأكثر نفوذًا وانتشارًا، ووسائل عرض المحتوى فيها كثيرة ومتنوعة، يتطلب الأمر فقط دراسة جيدة، وإعدادًا احترافيًّا، وتسويقًا ذكيًّا، وقبل ذلك كلِّه نية وعزيمة صادقة.

فهل يأتي يوم نرى فيه عملًا فنيًّا أو رواية عربية تحملُ قيمًا وثوابتَ إسلاميةً أصيلة، تطرح رؤية واسعة لحياة موازية متحررة من أغلال النظام العالمي المهيمن، وترسخ في الوجدان أصالة مقاومة الظلم والطغيان داخليًّا وخارجيًّا، وتخرج إلى العالم منافسة للروايات العالمية الناجحة كعلى سبيل المثال رواية (الخيميائي) لباولو كويلو؟ والتي نشرت في ١١٩ دولة في العالم، وظلت ٣٠٠ أسبوعًا على رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في صحيفة (نيويورك تايمز) الأميركية! بل ترجمت إلى ٨٠ لغة، ودخلت موسوعة جينيس للأرقام القياسية كأكثر رواية تم توقيع ترجمات لها في حفل توقيع واحد، حيث وقع كويلو نسخًا بـ ٥٣ لغة في معرض فرانكفورت للكتاب في العام ٢٠٠٣، مما جعلها واحدة من أكثر الكتب مبيعًا على مر التاريخ، على ما فيها من أفكار اتحادية وحلولية عقدية خطيرة؟ هل يأتي ذلك اليوم الذي نوصّل فيه فكر المقاومة والتحرر وسيادة الحضارة الإسلامية للجمهور في صورة فنية يُكتب لها الانتشار هكذا؟

أرجو ذلك..



مقاومة الشعوب (٢)

د. عمرو عادل

عرض المقال الأول المراحل الثلاث الرئيسية في مسار المقاومة الشعبية، وتناول العناصر التي توصف المرحلة الأولي «تجهيز الأرض والمجتمع للمقاومة» ،وكانت القيادة والجماهير والأرض والعدو، واستكمالًا لعرض هذه العناصر الأربعة ينبغي توضيح طبيعة العلاقات بينهم حتى تحقق أقصى كفاءة ممكنة عند الانتقال إلى المرحلة الثانية، وتحقق أكبر قدر من الحفاظ على القوى البشرية التي تم إعدادها.

في البداية ينبغي توضيح عدة أمور:

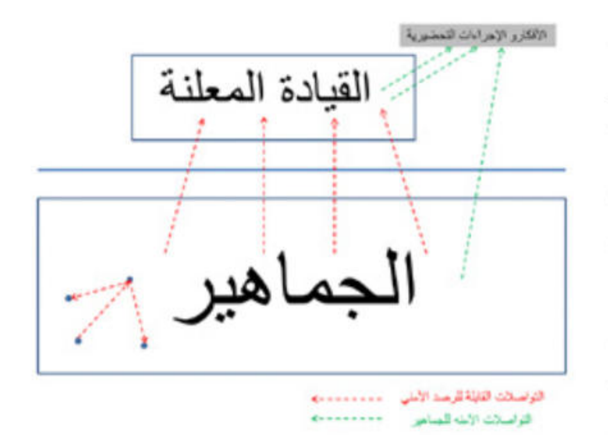
التجارب السابقة في محاولات التحرير بمصر ،اعتمدت فقط على مجموعات مركزية صغيرة أم كبيرة لا يهم ولكنها كانت بشكل ما منفصلة عن القواعد الشعبية الكبيرة، وبالتالي استطاع النظام حصارها داخل مساحة ما، أما الهدف من هذه الأفكار التي نعرضها هو إخراج فكرة المقاومة من حيز التنظيمات إلى حيز أوسع بكثير، فإن الثورة لا تكون شعبية حقيقة إلا إذا اشترك فيها جزء معتبر من الشعب ،ويعبر فيها عن رغباته ومصالحه مع التأكيد أن الأنوية الصلبة شديدة الأهمية في العمل الثوري المقاوم، وهذا ما سنعرض له لاحقًا.

الخبرات السابقة أكدت ذلك؛ حيث أكدت أن فكرة حروب العصابات التي تبنتها بعض التنظيمات لم تحقق نجاحًا ،نظرًا لطبيعة مصر الطبوغرافية ،وطريقة التقسيم الإداري لمصر

ومعدلات السيطرة العالية من النظام السياسي، فمصر الحديثة بنيت من أجل أن تكون تحت سيطرة الدولة كاملة، لذلك فالهدف الآن هو حشد أكبر قدر ممكن من الشعب المؤمن بقضية التحرير؛ غير المنتمي إلى تنظيمات هرمية ويرغب في المشاركة في العمل دون التعرض لبطش الأجهزة الأمنية الموجه للتنظيمات؛ على أهداف وأفكار وإجراءات محددة والانتظار للحظة ما يتحرك فيها بشكل مفاجئ للنظام وحاسم نحو أهداف محددة بالتتابع؛ حيث يفقد النظام السياسي توازنه وسيطرته طبقًا للمراحل الثلاث التي ذكرها ماوتسي يونج في كتابة حرب الأنصار.

لا يمكن المجازفة بالتحرك لمواجهة النظام بغرض إسقاطه تمامًا بشكل حقيقي ،دون الوصول إلى حد أدنى من الإعداد وبناء القوى الصلبة والجماهيرية.

وكي تتحقق الأمور السابقة ينبغي أن تكون العلاقات بين العناصر الأربعة في هذه المرحلة واضحة، لأن أخطر الأمور هو اختراقات النظم الأمنية والعسكرية وضرب أي فكرة لتقوية أو نشر المقاومة.



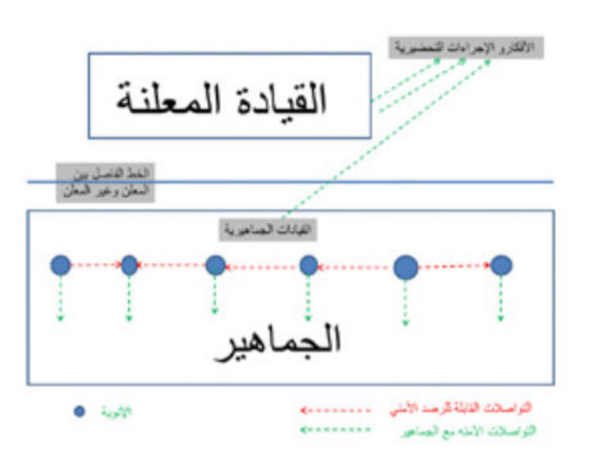
ويبين الشكل التالي التصور المقترح للعلاقة بين القيادة المعلنة والجماهير في مرحلة البناء، حيث يشير إلى خطورة الاتصال المباشر بينهما باستخدام الوسائل المتعارف عليها ،فهي إحدى وسائل الاختراق سواء بدفع عناصر أمنية لإجراء تواصلات خادعة بالقيادة أو لرصد القوى الجماهيرية التي تتواصل مع القيادة. وبالتالي فالهدف في بدايات المرحلة الأولى هو نشر الأفكار والإجراءات داخل المجتمع بطرق غير مباشرة، دون احتمال رصد مباشر من نظام، حيث إن المهارات العالية للتأمين والحماية من عدم التتبع غير متاحة لدى عموم الجماهير، لذلك لا ينبغي إحداث أي تواصل مباشر مع القيادة، وهذه الطريقة يمكن بها رصد القيادة المعلنة أصلًا وهذه لا تمثل أزمة، ولا يمكن بها رصد الجماهير المهتمة بشأن المقاومة. وبالتأكيد يكون استقبال الأفكار والإجراءات داخل الجماهير بالأساس بشكل فردي تمامًا؛ حيث إن أي تواصل بشكل غير آمن في هذه المرحلة بين الجماهير يزيد من احتمالية الرصد الأمني أيضًا.

نتيجـة لتطـور الأفـكار وانتشـارها ،تبـدأ الأنويـة الصغـيرة في التكـون داخـل القطـاع الجماهـيري طبقًـا لمـدى ثقـة الجماهـير في القيـادة ،ومـدى قـدرة الأفـكار على الإقنـاع والتأثـير على الجماهـير؛ حيـث إن غيـاب الجماهـير هـو انتحـار للمقاومـة [1] والمقصـود بالأنويـة الصغـيرة الأفـراد الذيـن آمنـوا بقـدرة الأفـكار والإجـراءات على تحقيـق قيمـة مضافـة للمقاومـة ،وبـدأوا فعـلًا في العمـل وتنفيـذ الإجـراءات التحضيريـة الـتي سـنذكرها لاحقًـا.

مـع تطـور وزيـادة الأنويـة وزيـادة إدراك ووعي الجماهـير المؤمنة بالثـورة؛ تبـدأ القيـادات الجماهيرية الميدانيـة في التشـكل ،وهـو تطـور كبـير في منظومـة المقاومة الشـعبية.

تبـدأ القيـادات الجماهيريـة عـبر أسـاليب آمنـة قـدر المسـتطاع وبسـبب وجودهـا داخـل الجماهـير بتكويـن أنويـة أكـثر قـوة وحجمًـا وغـير مترابطـة بعضهـا ببعـض، وهـذه إحـدى الخطـوات الحاسـمة في تطـور بنيـة المقاومـة، حيـث إن تكـون القيـادات الميدانيـة أحـد أكـبر الخطـوات في مسـار التوجـه نحـو الحسـم الثـوري.

ولا ينبغي أن تكون القيادات الميدانية منتمية إلى تنظيمات هرمية؛ حيث إن ضرب أي نقطة في التنظيم الهرمي يصيب المنظومة كلها بمشكلة، أما التنظيمات الأفقية غير المترابطة فيصعب للغاية تعقبها ،وفي حالة حدوث مشكلة في إحدى نقاطها لا يمكن لباقي الأنوية أن تتأثر.



إن هـذا التصـور هـو الهـدف النهـائي لمرحلـة تجهـيز المجتمـع للمقاومـة الشـعبية ،ويرتبـط بعنـصري الجماهـير والقيـادة ،وهي عمليـة طويلـة ولهـا إخفاقاتهـا ونجاحاتهـا؛ إلا أن الوصـول لهـا لا بديـل عنـه حـتى يمكننـا التحـرك بشـكل صحيـح في اتجـاه المراحـل المتعاقبـة حـتى الحسـم الثـوري، بالتأكيـد ليسـت الأمـور ميكانيكيـة تمامًـا وبهـا الكثـير مـن المتغـيرات، إلا أن كل المتغـيرات تخضـع لواقـع مختلـف مـن مـكان لآخـر ،وبالتـالي فـإن القيـادات الجماهيريـة هي صاحبـة اليـد العليـا في تحديـد مـا هـو مناسـب

(١) يقول روبرت تابر في كتابه «حرب المستضعفين» إن غياب الحاضنة الجماهيرية تحول المقاومين إلى قطاع طرق في نظر الجماهير، ص١٢.

ومـا هـو غـير مناسـب ،وهـذه التحديـات هي القـادرة على إنتـاج قيـادات جماهيريـة قويـة يمكنهـا قيـادة العمـل الثـوري[٢].

النقطتان الأخيرتان هما العدو والأرض، وبالنسبة للعدو؛ فالهدف الرئيسي هو معرفة أكبر قدر من المعلومات عن العدو المحدد للثورة الشعبية، وهو بالأساس مركز الثورة المضادة ومركز السيطرة على السلطة، وفي مصر لا أظن أننا نختلف عليه حيث تأكد لنا عبر خمسة وستين عامًا تقريبًا من إفساد البلاد وتخريبها أنها قيادات االعسكر الفاسدة، بقية نظام مبارك عملاء أمريكا وإسرائيل، الذين واجهوا كل محاولة سلمية للإطاحة بهم بالقتل والتعذيب والاعتقال. والمؤكد أن التعامل مع العدو المجهول هو هزيمة ساحقة ماحقة لا شك فيها، أما معرفة العدو معرفة كاملة فهو جزء كبير من النصر.

أمـا الأرض، فطبيعـة الطبوغرافيـة المصريـة وطبيعـة التنظيـم الإداري المبـني على فكـرة حصـار الشـعب في كنتونـات منفصلـة ومسـاحات ضيقـة يسـهل السـيطرة عليهـا عـبر السـيطرة على مفاصـل محـددة للطـرق- تجعـل السـيطرة على هـذه المفاصـل نقطـة صراع كـبرى، وتجعـل مـن يسـيطر عليهـا يصبـح هـو الأقـوى وهـو صاحـب اليـد العليـا، وهـذا كمـا قـال جمـال حمـدان نتيجـة للطبيعـة المركزيـة الصارخـة للبـلاد [٣]لذا فمـن الـضروري أن تكـون خطـط السـيطرة والحمايـة على مفاصـل الطـرق الرئيسـية ومداخـل المـدن والعقـد المروريـة ،أحـد أهـم الإجـراءات التحضيريـة للحسـم الثـوري، كمـا أن المعلومـات الخاصـة بـكل المؤسسـات الـتي تـدار منهـا السـلطة بدايـة مـن أصغـر قريـة حـتى القصـور الرئاسـية، في غايـة الأهميـة للتجهـيز للعمـل الثـوري.

قـد يـرى البعـض أن هـذه الأمـور تحتـاج لتنظيمـات قويـة للقيـام بهـا؛ وأن الشـعوب غـير مؤهلـة لذلـك، وأعتقـد أن الحالـة المصريـة تحتـاج لذلـك العمـل، بـل وهنـاك بعـض المـؤشرات الـتي تشـير إلى

(٢) ينظر: كتاب "ما العمل" ،لفلاديمير لينين ،ص ٦٧ ،حول منظمة الثوريين.

(٣) شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان لعل من أبرز ملامح الشخصية المصرية، المركزية الصارخة طبيعيا وإداريا. وهي صفة متوطنة لأنها قديمة قدم الأهرامات، مزمنة حتى اليوم، الجزء الرابع ص ٢٥٣.

احتمالية النجاح. لقد قام الشعب المصري بملاحم كبرى بعد فض اعتصام رابعة؛ بل استطاع تحقيق جزء من الأهداف التي أشرنا إليها ،ولكن غياب القيادة وغياب الهدف وعدم وضوح العدو لم يجعل الأمور تكتمل؛ وبالتالي بقدر من التخطيط والتنظيم الجيد ربما ينجح في ذلك الأمر في النهاية.

وبالتأكيد الطريق ليست سهلة، والأمور ليست بهذه البساطة ،إلا أن باستصحاب التصور الكلي المطروح ، نرى أنه قد يكون مثاليًّا للحالة المصرية، والأمل الأكبر منعقد على قيادة يمكنها طرح أفكار وإجراءات يثق بها المجتمع، ووجود قيادات جماهيرية تقتنع بتلك القيادة وتبدأ في البناء طبقًا لهذا النموذج؛ لتصل بالمجتمع للنقطة الحرجة التي يمكنه بها من الدخول في مرحلة الحسم الثوري.

ودور المجموعات التي تعمل بأسلوب مختلف وخارج هذا الإطار مطلوب وهام، ولكنه يحتاج إلى خبرات ومهارات لا يمكن توفرها لدى القوى الشعبية الكبيرة، وهذه المجموعات ربما ستكون القاطرة التي تعطي القوة الدافعة للعمل الثوري، ولكنها وحدها لن يمكنها تحقيق تغيير جذري وحسم ثوري بدون القوى الشعبية التي نسعى لتكوينها.

وفي المقال القادم نستعرض الإجراءات والأفكار المتعلقة بمعرفة العدو والأرض ،والتي لابد أن تنتشر داخل المجتمع لتدفعه إلى إنتاج قياداته الميدانية.



عذراء ماليزيا (٢)

يسرا جلال

تكسرت الأمواج بعنف على صخور الشاطئ، بينما اكتسى المكان بحمرة الشفق، محاولات (إبراهيم) لتمالك أعصابه لم تُجدِ نفعًا؛ فانطلقت كلماته معنفة الشاب الصغير أمامه الذي يرتدي ملابس أوربية لا تخطئها العين: «يا هاشم.. المفاوضات مع هؤلاء مضيعة للوقت! عندما نسمح لهم بالتفاوض معنا نمنحهم فرصة ذهبية ليكسبوا أرضًا جديدة، ويعيدوا ترتيب صفوفهم، و...».

قاطعه هاشم محاولًا إقناعه: «ولكن يا جدي التفاوض معنا معناه اعترافهم بوجودنا وبقوتنا..». احتدّ الشيخ وزاد غضبه: «اصمت أيها الغِر! وهل ننتظر اعترافًا منهم بوجودنا؟!! نحن هنا على هذه الأرض قبلهم؟ نحن من قاوم الإسبان ثم الأمريكان واليابانيين؟ نحن من لزم غرز الجهاد بينما كان الإسبان ينصرون الوثنيين مقابل تيجان من أوراق شجر الموز.. ولَم يترك هؤلاء المحتلون الفلبين إلا بعد أن اطمأنوا أنهم تَرَكُوا على كرسي الحكم من يواليهم وينفذ مخططاتهم من الباريوز المتنصرين والوثنيين!

أنسيت كيف كانت الحكومة الفلبينية تحرض على نهضتنا الإسلامية في الجنوب؟ أنسيت تحالف السلطة مع المال وإشراف ماركوس بنفسه على إفراغ أراضي المسلمين من سكانها؟ ولِم لا؟ أراضٍ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.. تنتج إنتاج الفلبين كاملًا من الموز والمطاط، ونصف ما تنتجه الفلبين من الذرة والبن وجوز الهند! لم لا يسيل لعابهم عليها؟ اختلقوا الصراعات وخططوا لها، رفضوا تسجيل الأرض بأسماء أصحابها المسلمين وسمحوا للنصارى بتملكها، وحين يطالب

المسلمون بأرضهم يحدث الصدام الذي تغذيه الدولة وتنتظره.. حرقوا المزارع وألقوا السموم في آبار المياه فنفقت الحيوانات.. أنسيت مذبحة مانيلي حين «جمعت السلطات بعض المسلمين في المسجد (عام ١٩٧١) بحجة عقد صلح بينهم وبين النصارى، وإنهاء قضية الأرض، وبينما كان المسلمون في المسجد إذ دخلته جماعة مسلحة من النصارى (يرتدون زي الشرطة الفلبينية) وبدأت بإطلاق النار من المدافع الرشاشة التي بأيدي أفرادها، وكانت النتيجة أن قتل سبعون مسلمًا وجرح خمسون آخرون»[1].

إنهم خونة يا هاشم.. عندها أمرنا جدي (سيف الدين) رحمه الله بالعودة لبنادقنا القديمة والمدي والعصي، ثم بعدها شكل الشيخان (سلامات هاشم) أسد الجهاد و(نور ميسواري) جبهة تحرير مورو عام ١٩٦٢.. لم نضع سلاحنا حتى بعد أن وسمتنا الحكومة بالمتمردين، وهل يفترض أن يقتلوا منا أكثر من مائة ألف مسلم ويشردوا أكثر من مليون مدني ونصمت؟ تتواطأ الحكومة مع عصابات (إيلاجا) لتغتصب أراضينا وتقتلنا في المساجد ثم نستكين لهم؟».

عاد هاشم فقاطع جده متسائلًا: «ولكن أليست (إيلاجا) منظمة تابعة للحكومة؟»..

«بلى، ولكنهم يدّعون غير ذلك.. يزودونهم بالمال والسلاح ويوفرون لهم الغطاء الشرعي.. مسرحية.. حتى تكون الخطوة الثانية منا فنرد عليهم لنصبح (متمردين).. حينها اتحد زعماء المسلمين وطالبوا العالم الإسلامي بحمايتنا، ولكن ماركوس لوقاحته وفَرط عنفه ظن أنه بإمكانه القضاء علينا فأعلن الأحكام العرفية في مناطق المسلمين..

صمدنا وقاومنا ببنادقنا القديمة وأسلحتنا البدائية.. كنّا صفًّا واحدًا في جبهة تحرير مورو، جمعنا الإسلام وفرقنا إسفين (المفاوضات)! أراد (القذافي) أن يبدو في صورة الزعيم المنقذ خليفة المسلمين فكانت اتفاقية (طرابلس) عام ١٩٧٦ التي منونا فيها بحكم ذاتي ومحاكم شرعية ومدارس ومعاهد.. كانت الاتفاقية كالغصة في الحلق؛ اختصت الحكومة نفسها بحق التعدين والتنجيم في الجنوب، كما أتاحت الاتفاقية الوقت لماركوس لتنظيم قواته من جديد. لم تمر سوى

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج٢٢ ص١٢١، ط المكتب الإسلامي]

أشهر أربعة بعدها حتى أعلن (ماركوس) تخليه عن التزامات الاتفاقية، وعاد الهجوم الوحشي على المسلمين، قصف (ماركوس) مساجد المسلمين بالبوارج الحربية والطائرات، أبيدت قرى بأكملها.. كان أسد الجهاد (سلامات هاشم) على حق حين أعلن انشقاقه عن جبهة مورو الوطنية عام ١٩٧٧؛ فقد تخلت الجبهة عن فكرة الاستقلال واكتفت بالمطالبة بحكم ذاتي وتأكد لنا عوار اتفاقية طرابلس».

عاد هاشم فقاطع الشيخ مرة أخرى: «ولكن الأمر هذه المرة مختلف، نحن الآن في موقف قوة». احتد عليه جده الشيخ (إبراهيم): «ومتى كنّا في موقف ضعف؟ هم من طلبوا منا توقيع اتفاقية طرابلس بعد أن أعياهم القتال مع رجالنا رغم تفوقهم في العدد والعتاد، لِم لا نفرض شروطنا ونصر عليها ؟ هم من تعبوا من القتال أما نحن فلا.. يئن قلبي والله حين أتذكر (نور ميسواري) وهو يضع يده في يد ممثل الحكومة بعد أن خدعوه بمنطقة للحكم الذاتي وجعلوه محافظًا لها، بينما كان جيشهم يقتل المسلمين في جبهة مورو! كان موقف (ميسواري) قويًّا حتى رضخ لشروطهم.. أما الحكومة فلم تفِ بما وعدت بل وضعوا العراقيل لتعقيد تنفيذ الاتفاقية.

لقد وعدت جدي (سيف الدين) رحمه الله ألا أَترك الجهاد.. وعدته بإكمال ما بدأه (لابولابو) و(راجا سليمان).. دائمًا ما كان يحذرني رحمه الله من الوهن -حب الدنيا، وكراهية الموت- كما كان يتلو عليّ قول الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، ثم تلمع عيناه بعد تلاوة الآية ويشير بإصبعه: (الصبر والتقوى)! والله إنها لترن في أذني بصوته الرخيم!».

لابولابو

لم يستمر (نور ميسواري) كمحافظ لإقليم ميندناو المسلم لأكثر من أربع سنين، أطاح به أعضاء جبهته عام ٢٠٠٠ مبررين ذلك بأدائه السيء.. اضطر (ميسواري) الذي بدا وكأنه ترك القتال إلى الأبد إلى إعلان الحرب على الحكومة التي كانت ترأسها (جلوريا أوريو). لم تكن الحرب هذه المرة لتحقيق الاستقلال للمسلمين ولَم تكن حتى تهدف للوصول للحكم الذاتي، كانت حربًا شنها لفقدانه منصبه في المنطقة، حربًا سقط فيها مئات القتلى من رجاله، واضطر بعدها للفرار

إلى ماليزيـا الـتي سـلمته للفلبـين، ثـم اعتقلتـه الحكومـة الفلبينيـة خمـس سـنوات قبـل أن تطلـق سراحـه.

أمـا مجاهـدو جبهـة مـورو فقـد اسـتمروا في القتـال والمقاومـة مـا ألجـأ الحكومـة الفلبينيـة إلى وسـاطة ماليزيـة لإقنـاع الجبهـة بالعـودة للتفـاوض، وكان الشـيخ (سـلامات هاشـم) أكـد قبـل وفاتـه الـتزام الجبهـة بالوصـول لتسـوية سـلمية. بـدأت المفاوضـات قبـل وفـاة الشـيخ سـلامات واسـتمرت حـتى العـام ٢٠١٤ حيـث وقـع الرئيـس الفلبيـني ورئيـس تحريـر جبهـة مـورو الشـيخ (مـراد إبراهيـم) اتفـاق سـلام نهـائي، وراح (هاشـم) ليبـشر جـده الشـيخ (إبراهيـم) بنجـاح المفاوضـات:

«اسـمع يـا شـيخ - حكـم ذاتي بحلـول العـام ٢٠١٦ في خمـس محافظـات سـيطلق عليهـا جميعًـا اسـم (بانجاسـا مـورو) يعقبـه اسـتفتاء على الدسـتور ثـم... يـا شـيخ؟ لا تبـدو متحمسًـا؟! اسـمع.. اسـمع.. نظـام انتخـابي مسـتقل، حكومـة مركزيـة، سـلطات تشريعيـة وقضائيـة، صفقـة ممتـازة.. يـا شـيخ هـل أرفـع صـوتي لتسـمعني؟».

رد الشـيخ التسـعيني بصـوت واهـن: «وتعهدتـم بإلقـاء السـلاح بالطبـع؟ لا تتخلـوا عـن سـلاحكم يـا بـني..».

> ” وتعهدتم بإلقاء السلاح بالطبع؟ لا تتخلوا عن سلاحكم يا بني.. “

«لا تقلـق يـا جـدي لا يمكـن للجبهـة أن تلـقي سـلاحها قبـل أن نصـل لمـا نريـده وسـنواصل الضغـط السـياسي إلى جانـب العمـل العسـكري...».

قاطعـه الشـيخ متهكمًـا: «ضغـط سـياسي!! الضغـط السـياسي تمارسـه فوهـات البنـادق لا عدسـات الكامـيرات.. أخـشى أن يتسـبب هـذا الاتفـاق كسـابقه في إحـداث شـق جديـد في صـف الجبهـة.. خاصـة أن الحكومـة الفلبينيـة غـير مؤتمنـة على أي اتفـاق.. ولا يبـدو أن....»

«لننتظر ونرى يا جدي لننتظر ونرى..».

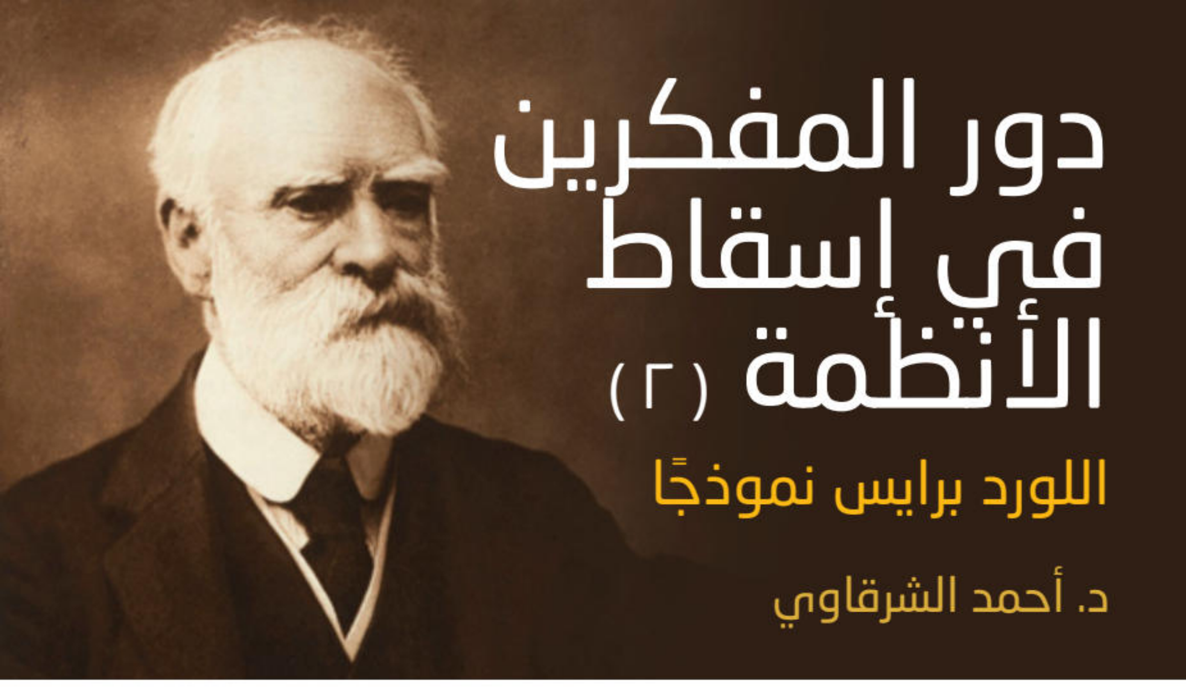
غير بعيد من المسجد.. ارتفع صوت المذياع، ورن صوت مذيع النشرة عاليًا قبل أن يختلط بصوت الأمواج:

«هـذا ومـا زال دسـتور بانجاسـامورو محـل نقـاش في البرلمـان الفلبيـني، ورغـم أن شـعب مـورو يرغب بهـذا الدسـتور إلا أن المحكمـة الدسـتورية العليـا في الفلبـين قـد تقـول إنـه يخالـف دسـتور البـلاد.. وقـد كانـت الجبهـة سـلمت أسـلحتها رسـميًّا خـلال احتفاليـة أقيمـت في منطقـة "مينداناو" جنـوبي الفلبـين في وقـت سـابق مـن العـام ٢٠١٥، شـارك فيهـا رئيـس البـلاد، بنيغنـو آكينـو، وزعيـم الجبهـة، الحـاج مـراد إبراهيـم، ليسـدل بذلـك السـتار على صراع امتـد منـذ سـبعينيات القـرن المـاضي.

على جانـب آخـر قـال "آكينـو" في كلمـة له خـلال المراسـم (إننـا نعيـش لحظـات تاريخيـة، فالحديـث عـن إلقـاء مجموعـة كانـت تتصـارع مـع الحكومـة أسـلحتها، كان قبـل سـنوات ضربًـا مـن الخيـال، إلا إن إخواننـا في جبهـة مـورو تعهـدوا بالتخـلي عـن السـلاح طواعيـةً).

وعلى صعيـد متصـل وعلى ذمـة وكالـة الأناضـول أعلـن الجيـش الفلبيـني، أمـس الأحـد تحييـد ٤٧ مسـلحًا، بينهـم أجانـب، خـلال سلسـلة مـن العمليـات الأمنيـة المدعومـة مـن القـوات الجويـة جنـوب البـلاد. وقالـت المتحدثـة باسـم قيـادة ميندانـاو الغربيـة الكابـتن جـو آن بيتينـج لاي في تصريـح صحـفي: (قواتنـا وجهـت ضربـة قاسـية ضـد مسـلحي حركـة مقاتلـو بانجسـامورو الإسـلاميين)».

تمت ..



دور المفكرين في إسقاط الأنظمة (٢)

اللورد برايس نموذجًا

د. أحمد الشرقاوي

كانت مسألة تهجير الأرمن من المناطق الحدودية مع روسيا إلى ولاية سوريا العثمانية، وما صاحبها من حوادث وتجاوزات =مادة خصبة للدعاية والإعلام خاصة في وقت الحرب؛ إذ تصبح وسائل الدعاية من الأسلحة التي لا تقل أهمية عن طوابير الجيش الأربعة. وعليه؛ فقد استمرت وسائل الإعلام الغربي، خاصة دول الحلفاء، في إبراز الأحداث الأرمنية بالشكل الذي يخدم دول الحلفاء، ومن الطبيعي أن يكون ذلك بتوجيهات من الحكومات بما يؤيد خططها، ويخدم مصالحها وتوجهاتها.

في ٢ أكتوبر ١٩١٥ كتب اللورد كرومر إلى اللورد كريو في وزارة الخارجية، لعرض المسألة الأرمنية في مجلس اللوردات الذي سيعقد بعد أيام، يقول فيه: «أعتقد أنه من المرغوب فيه في الوقت الحالي إعطاء الدعاية الأهمية الكبرى، ضد الحكومة التركية والإجراءات المتخذة ضد الأرمن، وخاصة لدى المسلمين المتعلمين في الهند؛ ليدركوا طبيعة الحكومة التركية، مع الحرص على عدم ربط طبيعة الإسلام وتعاليمه بما تفعله تركيا[1].

وكان السبب الرئيسي في ذكر مسلمي الهند هو إعلان الجهاد الذي أعلنه السلطان العثماني لمسلمي العالم، بعد دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى، وخشية دول الحلفاء أن يؤدي هذا الإعلان إلى اضطرابات لدى الجاليات الإسلامية في دولهم أو لدى المسلمين في مستعمراتهم[2].

(1) F. O. 371/2488/143621, 2.10.1915.

(2) L. Evans: United States policy and the partion of Turkey, 1914 – 1924, Baltimore, 1964, P.: 27.

وفي ٦ أكتوبر ١٩١٥ قام اللورد برايس في مجلس اللوردات بعرض المسألة الأرمنية، لكن وفقًا لمقترحات المجلس فإن اللورد برايس أعطى «صورة رهيبة» للحوادث في الأناضول، اعتمادًا على مصادر أرمنية وعلى المبشرين[٣]. من جهة أخرى؛ كانت الصحافة البريطانية قد أرسلت إلى اللورد برايس لإمدادهم بالأخبار والمعلومات، وإمدادهم بشكل أخص بالصور عن الأحداث، ووعدهم بفعل ما يلزم، إلا أنه لم يتمكن من الحصول على الصور رغم مساعدة أصدقاؤه الأرمن[٤].

وفي ١ يونيو ١٩١٦ كتب برايس إلى اللورد جراي: لصالح الخلفية التاريخية أجد أنه من المناسب أن أكتب تقريرًا مفصلاً عن الأحداث الأرمنية، وتحليلها، إذ أنه قد تمت الاستجابة لدعوتي، وجاء الكثيرون من الأرمن بالمصادر التي تثبت صحة أقوالهم. ثم أوضح أنه تعاون مع « مؤرخ شاب له خلفية أكاديمية جيدة هو أرنولد توينبي، الذي كان يعمل سابقًا في أكسفورد»[٥].

في ٢٣ أغسطس أجاب اللورد جراي أن التقرير «دليل واهي جدًّا» ، وعند نشره سيتم فحصه على نطاق عالمي من قِبل كل المهتمين بالمسألة، لكن برايس قال بأن هذا التقرير سيساعد في «دعم القضية الأرمنية والأرمن الضعفاء» ضد الحكومة التركية، ليس هذا فحسب بل «سيمد المؤرخين بالمعلومات في المستقبل»[٦].



كان اللورد برايس من الليبراليين البريطانيين، وكان شديد الكراهية للأتراك والمسلمين عامة، وللحكم التركي في أوربا، وكان قد نشر كتابه «القوقاز وآرارات» عام ١٨٧٧، شجع فيه الأرمن على الثورة ضد العثمانيين قائلاً: «لماذا لا يثور الأرمن على الظالمين كما فعل أجدادهم ضد الفرس؟»[٧].

---

(3) F. O. 371/2483, 6.10.1915.

(4) F. O. 371/148680, 11.10.1915.

(5) S. Sonyel: The Great Ware and the Tragedy of Anatoli, T. T. K., Ankara, 2001, P.: 144.

(6) Toynbee : Op., Cit., Preface, P.: 16 - 18.

(7) James Bryce: Transcaucasia and Ararat, London, 1877, P.: 344.

في أغسطس ١٨٨٩ وقعت حادثة في إحدى مدن شرق الأناضول تسمى بلايدر، راح ضحيتها سبعة قتلى من الأرمن، ودمر ٥٠ منزلاً، وعلى الفور استغل برايس الحادث، وراح يتهم رجال القبائل الكردية والمسلمين المتعصبين الأتراك، لكن بعد أيام عرف سبب الحادث؛ إذ أرسل المستشار البريطاني توماس بويدجيان وهو من أصل أرمني تقريرًا إلى البرلمان البريطاني عن الحادث، جاء فيه أن سبب هذا الحادث شخص أرمني من هذه القرية تحول إلى المذهب الكاثوليكي وقرر أن يقضي على كل الأرمن حوله الذين لم يتحولوا[٨].

في أول مارس ١٩١٥ اقترح اللورد برايس أن تعلن روسيا عن دعمها لحكم ذاتي أرمني تحت الحماية الروسية، وطبقًا لرؤية برايس فإن هذا الإعلان سوف يلتقي مع رغبة الأرمن في الاستقلال، ويجعلهم يطلبون المساعدة من الحلفاء في صراعهم مع تركيا[٩]. بل هو قد شجع الأرمن بشكل رسمي للثورة ضد الأتراك في قليقيا (المناطق التي يسكنها الأرمن شرقي الأناضول)[١٠].

ونستعرض فيما يلي بعضًا من «الوثائق والشهادات» التي جمعها برايس في كتابه «معاملة الأرمن في الإمبراطورية العثمانية». حسب رواية الآنسة جريس كناب الأمريكية المقيمة في مدينة وان، وهي رقم ١٥ في مجموعة برايس، فإن عدد سكان هذه المدينة كان خمسين ألفًا، ثلاثة أخماسهم من الأرمن، وكانوا يشعرون بقوتهم، وكانت عيشتهم مزدهرة، وكان يفخرون بمدينتهم هذه التي أسموها «مدينة الكروم»، و»مدينة الحدائق»، وكانت تنشط بينهم الأحزاب الأرمنية، ويتزعمهم نائبهم في البرلمان العثماني أرشاك فراميان وزميلاه نيكوغايوس أشخان وآرام (مانوكيان)، وكانت بالمدينة إرسالية أمريكية ومعسكرات للقوات المسلحة العثمانية، وكان حاكمها العسكري «جودت بك» صهرًا لأنور باشا، وقد بدأت الأحداث فيها بطلب هذا الحاكم أو الوالي من أهلها من الأرمن ثلاثة آلاف شاب لتجنيدهم.

وقد تجمع الأرمن في يوم٢٠ إبريل ١٩١٥ بقيادة آرام مانوكيان في حي واحد هو حيهم المسمى «الحي ذو الأسوار»، وأحكموا تحصينه، وظلوا يقاومون بأسلحتهم القليلة البالغة ٣٠٠ بندقية، وبالذخائر التي كانوا يصنعونها محليًا، هجمات القوات المسلحة العثمانية، واستطاعوا في وقت ما الاستيلاء على أحد المعسكرين العثمانيين، وصمدوا حتى دخلت القوات الروسية وقوات المتطوعين الأرمن التي أرسلت لنجدتهم[١١].

---

(8) British Problementary Paper: 5376, XCVI, Turkey No. 1, (1980 – 91) C. 6214, 10.8.1889.

(9) F. O. 371/2485/30439. 9.3. 1915 .

(10) British Colonial Office, 67/178/20859, 4.5.1915, 26.4.1915.

(١١) نقلا عن : فؤاد حسن حافظ: تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية وحتى اليوم ، القاهرة ، 1986م ، ص : 308 .

وحسب رواية القس الأرمني ديكران أندوسيان راعي كنيسة الأرمن البروتستانت في زيتون، وهي رقم ١٢ في مجموعة برايس، كانت الحالة متوترة في منطقة زيتون عند نشوب الحرب بسبب عدم إقبال الأرمن على التجنيد، وفرار بعضهم منه إلى الجبال، وقتالهم مطارديهم من الجنود.

وحسب رواية الكاتب العربي «فايز أسعد الغصين» في كتابه «أرمينية الشهيدة» فإن الوالي رشيد بك أمر بالقبض على أعيان الأرمن وسجنهم؛ لأن عامتهم كانوا لا يقبلون على الخدمة العسكرية، ويهربون منها، ويقومون بتشكيل العصابات.

وحسب رواية الأرمني توماس مجردتشيان وهي رقم ١٣٤ بمجموعة برايس، جرت المذابح على ثلاث دفعات في المدة من ١٩ أغسطس حتى أول أكتوبر ١٩١٥، وراح ضحيتها كل الأرمن بها الذي بلغ عددهم قرابة ٢٨ ألفًا؛ إذ رفضوا الانصياع لأوامر ترحيلهم، وتحصنوا بحيهم، فهاجمتهم القوات العثمانية بقيادة فخري باشا وضربتهم بالمدافع(١٢).

رواية شاهد أجنبي لم يذكر اسمه أيضًا؛ مقيم في قونية ومؤرخة في يوم ١٧ يولية سنة ١٩١٥ هي رقم ١٢٥ في مجموعة برايس، تقول إن السلطات العثمانية أسكنت الأرمن المبعدين في اسطبلات الجمال بعد أن خلت منها لأخذها لنقل المعدات الحربية، وكانت تعطي لكل منهم مائة وخمسين درهمًا من الدقيق يوميًا، ثم أنقصته إلى مائة، ثم لم تعطهم شيئًا بعد أربعة أسابيع وتركتهم يبحثون عن أعمال للاقتيات منها(١٣).

وحسب رواية أجنبي آخر لم يذكر اسمه مقيم بطرابزون وهي رقم ٧٢ بمجموعة برايس فإنه في يوم ٢٦ يونية سنة ١٩١٥، ألصقت بالشوارع إعلانات عن وجوب ترحيل كل الأرمن من طرابزن. وفي أول يولية سنة ١٩١٥ بدأ القبض عليهم من منازلهم البالغة جملتها ألف، وأرسلوا جنوبًا إلى داخل الأناضول برصا، كما أن بعضهم حمل في قوارب صغيرة لإرسالهم غربًا إلى ميناء سمسون بحرًا، فغرقت بهم هذه القوارب في الطريق إليها، ولعل هذا ما كان مقصودًا.



(١٢) فؤاد حسن حافظ: مرجع سابق ، ص : 313 .

(١٣) فؤاد حسن حافظ: مرجع سابق ، ص : ٣٠٨ .

ومـن الأعمـال غـير الإنسـانية الـتي قارفتهـا السـلطات العثمانيـة ضـد الأرمـن إلحـاق أطفالهـم بمـلاجئ الأيتـام الإسـلامية، وتغيـير أسـمائهم ومحاولـة طمـس ماضيهـم لـكي ينشـأوا أتـراكًا(١٤).

وهـو مـا قامـت العصابـات الأرمنيـة بالانتقـام له مـن أطفـال المسـلمين العثمانيـين، إذ هاجمـت مستشـفيات الإرسـاليات الأجنبيـة والصليـب الأحمـر وغيرهـا، فذبحـوا الأطفـال فيهـا، ثـم جعلـوا مـن جثثهـم دروعا بشريـة، بـل في أحيـان كثـيرة ألقوهـم أحيـاء في قـدور مـاء مغـلي، وأجـبروا آبائهـم على أكل لحـوم أبنائهـم مسـلوقة(١٥).

وبعـد اسـتعراض مجموعـة مـن شـهادات ووثائـق اللـورد باريـس، والاتهامـات الموجهـة إلى الحكومـة العثمانيـة بالجرائـم المقترفـة ضـد الأرمـن، بقـراءة متجـردة عـن تأثـيرات الدعايـة، وبوضـع الأمـور في سـياقها التاريـخي، نجـد ببسـاطة أن هـذه الاتهامـات ضـد الحكومـة العثمانيـة تحمـل اعترافـات أرمنيـة قـد تكـون هي الأخـرى جرائـم مسـوغة لتصرفـات الحكومـة العثمانيـة المتهمـة، ومـن هـذه الاعترافـات:

- امتناع الشباب الأرمني عن التجنيد في القوات العثمانية.
- مقاومة قوات الجيش العثماني التي جاءت لإجبارهم على تنفيذ واجب الالتحاق بالجيش وهو في حالة حرب.
- المقاومة المسلحة، بل وتصنيع الأسلحة والذخيرة المعدة سلفًا للمقاومة.
- قائد المقاومة أو بالأحرى العصيان تعينه القوات الروسية حاكمًا للمناطق المحتلة.
- هروب الأرمن إلى الجبال حتى لا يلتحقوا بالجيش العثماني، بل وقتل الجنود العثمانيين المطاردين لهم.
- عصيان أوامر الحكومة -وقت الحرب والطوارئ-، والامتناع عن الترحيل، رغم الإعلان عنه قبلها، والتشديد عليه

وغيرهـا مـن الاتهامـات أو الجرائـم الأخـرى الـتي تحملهـا «شـهادات» مجموعـة برايـس أو بمعـنى أحـرى «اعترافـات» هـؤلاء الشـهود.

وقـد تجـاوز الأمـر الاعـتراف، إلى القـراءة العكسـية للأحـداث، وعلى سـبيل المثـال الإجـراءات الـتي تمـت لصالـح الأطفـال الأيتـام، إذ وزعتهـم السـلطات على الأسر التركيـة لتربيتهـم، أو سـلمتهم لذويهـم، والباقـون أودعـوا مـلاجئ الأيتـام، وكانـت تلـك إحـدى الأعمـال غـير الإنسـانية في نظـر «الشـهود»، فمـاذا كان المطلـوب أن تقـوم السـلطات العثمانيـة ليكـون ذلـك عمـلاً إنسـانيًا؟

---

(١٤) المرجع السابق، ص: ٣١٥.

(١٥) أحمد الشرقاوي: مذابح الأرمن ضد الأتراك في الوثائق العثمانية والروسية والأمريكية، دار البشير، القاهرة، ٢٠١٦م، انظر على سبيل المثال الوثائق رقم ٢، ٤، ٦

هكـذا يتـم اسـتخدام المثقفـين سـواء مـن السياسـيين أو غيرهـم مـن عامـة المفكريـن مـن قِبـل السـلطات لتزويـر الحقائـق وقلبهـا مـن خـلال الكتـب والمقـالات والأبحـاث، لمـا لهـم مـن أثـر قـوي في توجيـه النـاس وقيـادة الدفـة السياسـية للبـلاد أحيانًـا، وعندهـا تختـفي شـعارات أمانـة البحـث والكلمـة والميثـاق المعـرفي الذي يتخـذه كل مثقـف على عاتقـه.

فحـريٌّ بأهـل الحـق مـن المثقفـين والمفكريـن ألا يدخـروا جهـدًا في نـشر كلمـة الحـق والجهـر بهـا وتوعيـة الجماهـير، بمـا يُحـاك لهـم ويُدبـر ضدهـم، غـير مبالـين بسـلطان المسـتبدين، جاعلـين غايتهـم الله وحـده. حينهـا سـيجدون الثمـرة بتوافـد الصادقـين عليهـم والتفافهـم حولهـم فيقودونهـم لإحـداث التغيير المنشـود.

مراجع

BOA. HR. SYS. 2872/2, Belge No: 11, 17.

BOA. HR. SYS. 2872/4, Belge No: 3, 4.

BOA. HR. SYS. 2872/2, Belge No: 92 – 98 .



تاريخ النهب الغربي

محمد شعبان صوان

في يوم ١٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١٤٩٢ وصلت الحملة الإسبانية التي رخصها الملكان الإسبانيان الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا إلى شواطئ الكاريبي في أمريكا في نفس العام الذي أسقطا فيه آخر معاقل المسلمين في الأندلس.

وكان يقود الحملة التي رفضها عدة زعماء أوروبيين، كريستوفر كولمبس، وهو من مدينة جنوة الإيطالية، لتدشن هذه الحملة اكتشاف الأوروبيين للعالم الجديد وهو ما صار يعرف باكتشاف أمريكا في تحد واضح للواقع حيث كان الملايين من البشر يقطنون هذا العالم قبل وصول كولمبس، كما وصله الكثيرون من العالم القديم قبله أيضاً، ولكن المركزية الأوروبية لم تكن تعترف بغير إنجازاتها، فأوروبا هي العالم وما تعرفه هو المعروف وما تجهله هو المجهول، فلا قيمة لغيرها ولا رأي لغيرها، وكان انطلاق كولمبس ووصوله إلى «العالم الجديد» بعد سقوط حكم المسلمين في غرناطة بأشهر في نفس ذلك العام الذي دشن «العصر الحديث» ومنه علاقة جديدة للغرب الأوروبي ببقية العالم كان منطلقها في البداية محاولة الالتفاف على سيطرة المسلمين بدولتهم الكبرى آنذاك على القسطنطينية وطرق التجارة، وفي نفس الوقت البحث عن موارد لتمويل محاولات احتلال بيت المقدس مرة أخرى بعد فشل حروب الفرنجة، وشهدت تلك العلاقة الأوروبية-العالمية تقلبات ومآسي شتى على نطاق واسع كالغزو والإبادة والاسترقاق ونشر المخدرات وفرض التخلف والاستعمار العسكري القديم ثم نظيره الجديد بأدواته الدولية والمحلية السياسية والاقتصادية والثقافية مع ظاهرة العودة إلى الاحتلال العسكري أحياناً، وفي كل ذلك كان يبدو واضحاً التفاوت الشديد حيث العالم الذي صنعه

الأوروبي لنفسه على حساب بقية العالم الآخر الذي يعيش فيه الملونون، وهي المعادلة المستمرة إلى اليوم في زمن الحرية والاستقلال وتقرير المصير والديمقراطية والإنسانية والعلم والعلمانية، ولهذا يبدو أن عاملاً ثابتاً منذ البداية إلى اليوم رغم التغيرات الجذرية في الأنظمة الأوروبية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، هذا العامل هو النهب.

مراحل النهب وذرائعه



النهب هو العامل الأكثر ثباتاً في التاريخ الغربي منذ فجر النهضة الأوروبية إلى اليوم، وبين نقطة البداية ونقطة النهاية مرت كثير من الظواهر واختفت ظواهر وظل النهب ثابتاً لم يتغير، انطلقت الكشوف الجغرافية في سبيل المعادن الثمينة وطرق التجارة، انتشرت القرصنة للنهب، ولأجل النهب بدأت الإبادة في العالم الجديد، كان السكان الأصليون في الأمريكتين وأستراليا عائقاً في وجه حصول الرجل الأبيض على أراضيهم، وهي سبب الهجرة والاستيطان، لم تكن الإبادة المليونية مجرد ولع بالقتل، بل قتل لأجل نهب مورد حيوي هو الأرض كما في أستراليا وشمال أمريكا، أو المعادن الثمينة كما في جنوبها، ثم بعث الرق من الرميم بعدما كان متجهاً إلى الاندثار في سبيل وسيلة جديدة للنهب: استغلال عمل الأفارقة في استنبات العالم الجديد، وفي سبيل نقلهم من إفريقيا إلى الأمريكتين بوسائل اقتصادية تمت إبادة الملايين منهم في عمليات الأسر والإبحار، لم يكن إفناؤهم كالهنود الحمر مطلوباً، بل استغلالهم بأكثر الطرق ربحاً، ولهذا تم قتل ما يلزم لذلك واسترقاق

الناجين، ثم صار الرق عائقاً في وجه التمدد الرأسمالي في بيئة شمال أمريكا غير الملائمة للرق الزراعي، فشن الحرب الضروس على الجنوب الزراعي بحجة حرية الرقيق ولكن الهدف كان هيمنة الرأسمالية الصناعية التي اجتاحت القارة وقضت على حرية السكان الأصليين، رغم ادعائها الحرص على الحرية، وانطلقت بعد السيطرة على كامل القارة لنهب العالم الخارجي، وباسم القضاء على الرق في العالم ظهر الاستعمار الأوروبي وسيلة أخرى للنهب، وباسم إزالة الاستعمار القديم الذي قامت به الجيوش الأوروبية المسلحة ظهر الاستعمار الأمريكي الجديد بالعملاء، لم يكن الاستعمار مجرد رغبات سادية في الإيذاء والقتل بل رغبة جامحة في النهب بالحصول على الموارد الأولية وتسويق البضائع المصنعة وفرص الاستثمار المالي، وفي سبيل ذلك ارتكب المستعمرون شتى أنواع الجرائم التي حصدت الملايين سخرة كما فعلت بلجيكا في الكونغو، أو جوعاً كما فعلت بريطانيا في الهند، أو قمعاً كما فعلت فرنسا في الجزائر،

"وفي سبيل النهب ادعى الغربي أنه ينشر الحضارة بين المتخلفين"

ولأجل محاربة تجارة الرقيق والقرصنة ظهرت قرصنة أوروبية أوسع في انتشار الأساطيل في بحار العالم، ولأجل تبرير نهب الآخرين تزاوجت الحرية مع العنصرية لتبرر الاستيلاء على أرض الهنود وعمل العبيد واستثناءهم من جنة الحرية البيضاء، ولأجل نهب الآخرين نادوا بحرية التجارة كي يسهلوا انسياب بضائعهم للعالم حتى لو شنت الحرب لأجل نشر الأفيون، ولكن لما تسير التجارة في الاتجاه المعاكس من الفقير إلى الغني تتوقف حرية التجارة وترتفع الحواجز الجمركية، لأجل النهب أيضاً، وفي سبيل النهب ادعى الغربي أنه ينشر الحضارة بين المتخلفين، ولكن الحضارة ستجعلهم عمالقة منافسين ولهذا حجب عنهم مدنيته ليسهل عليه نهبهم، ولكن عندما احتاج إلى تمدين بعضهم للوقوف في وجه غريمه الشيوعي بذل الحضارة بسخاء لليابان، ثم نشر التمدين بعيار محدود ليتمكن العالم من استهلاك منتجاته دون القدرة على منافستها، وفي سبيل نهب النفط فضل التعامل مع أنظمة تقليدية يسخر هو من تخلفها ولكنه يفضلها على أنظمة حديثة على شاكلته، وربما شن الحرب على المحدثين للحفاظ على ملك التقليديين.

استغلال أي فكرة تدعم النهب

ولأجل الهيمنة على منظومة النهب استخدم الدين والأساطير القديمة لإحياء عظام بني إسرائيل من الرميم رغم دعاواه العقلانية العلمانية، ولأجل السبب نفسه وهو الحفاظ على منظومة نهبه للعالم دعم استبداديات

عاتية ودكتاتوريات دموية رغم معتقداته الديمقراطية، وسرعان ما يستخدم الذريعة الديمقراطية لتحطيم أي مستبد حصل على دعمه الطويل لو فكر بالخروج عن مسار أوامر الغرب وتعليماته، ليأتي بمسخ ديمقراطي أكثر استبداداً ودموية ليغرس علاقات نهب مستقرة، اختفت العنصرية رسمياً وانتهى الاستعمار القديم واختفت القرصنة ولكن النهب استمر لأن الاحتلال رحل ولكن التبعية استمرت بعدما أحل وكلاءه من السكان المحليين يقدمون له الإتاوة ويفتحون الأراضي لقواعده ويحرسون مصالحه ويستأذنونه في قراراتهم ويشنون الحروب بالنيابة عن جنوده بعدما كانوا في البداية يتلقون هم الإعانات السخية ليكونوا أدوات هدم الكيان الموحد في بلادنا، الذي دافع عنها قروناً ضد الغزاة الذين يطمعون في الموارد والمواقع والطرق، إلى أن أنهكته الجراح، وكانت المساعدات كذلك للأدوات لتثبيت كياناتهم الانفصالية التابعة، فما جدوى الاستعمار القديم بعد كل هذا؟ لقد كنس الأمريكيون المستعمرين الأوروبيين واحتلوا أمكنتهم ليستطيعوا نهب ما كان ينهبه أسلافهم، فقنع سادة الماضي بما تبقى لهم، ولم يرسل الأمريكيون جيوشهم إلا قليلاً، تركوا الأعمال القذرة للعملاء الوطنيين يقومون بها نيابة عنهم بأيدي أبناء البلاد، صارت المؤسسات النقدية الدولية هي أدوات النهب الجديد بلا دماء ولا قتال ولا عراك، ثم استدرجهم إغواء الماضي وغطرسة القوة لتقليد الاستعمار الأوروبي القديم بل تقليد حروب الفرنجة الصليبية وإرسال الجيوش الجرارة ولكنهم تلقوا دروساً جعلتهم يدركون أن الزمن لم يعد زمن الفرسان الصليبيين، فباتوا مهزلة في غير زمنها كالفارس النبيل دون كيخوتي دي لا مانتشا.

شرعية النهب

أقام الغرب نظاماً عالمياً بمنظمات عالمية تشرع احتكاره القرار في مجلس الأمن وقوانين دولية تضفي الشرعية على ممارساته الاحتلالية ورغباته السياسية ومطامعه الاقتصادية حتى لو كانت عنيفة وغير قانونية وتصم الخارج عن مصالحه والمتمرد على إرادته بالإرهاب حتى لو كان مدافعاً عن حياته وماله وأرضه وعرضه، يشن الحرب عليه لأجل نهب موارده تحت راية «الشرعية الدولية» ولكن الحقيقة هي السرقة الدولية، والعالم ينصاع بإرادته دون قوة جبر، هذا حال كل التدخلات العسكرية الغربية ضد المتمردين، حرب حين اللزوم ثم عملية سلام حسب الطلب، الحرب باسم الديمقراطية والسلام بنفس الذريعة أيضاً، ولكنها كلها ذرائع وأقنعة لإخفاء واقع النهب، تكون مأساة فيتنام مبرراً للسلام تارة وتارة أخرى تكون حافزاً لدخول حروب جديدة لإزالة أعراض العقدة القديمة، وهكذا رأينا الرق جاء وذهب، وجاءت القرصنة وذهبت، والاستعمار القديم جاء وذهب، والتمدين جاء وذهب، والعنصرية تأتي وتذهب، والتجارة الحرة تأتي وتذهب، ونشر الأفيون يأتي ويذهب، والحروب تأتي وتذهب، والديمقراطية تأتي وتذهب، والعلمانية تأتي وتذهب، والذرائع كثيرة

ومتعددة، والنهب هو القاسم المشترك، حتى «المساعدة» ليست مجانية ولا تقدم إلا للابتزاز المالي أو السياسي وتأتي أو تذهب لنفس الغاية، أي للنهب أيضاً.

أنظمة النهب العالمي

ونظام عالمي إثر نظام عالمي منذ صلح وستفاليا ١٦٤٨ إلى نهاية حروب نابليون ١٨١٥ إلى نهاية الحرب الكبرى الأولى وإنشاء عصبة الأمم ١٩١٩ إلى نهاية الحرب الكبرى الثانية وإنشاء الأمم المتحدة ١٩٤٥ إلى انهيار المعسكر الشرقي والانفراد الأمريكي بالعالم ١٩٩١ ، كلها عمليات تقسيم غنائم بين المنتصرين، هناك مستعمرون كبار ومستعمرون أصغر، لم يكن المستعمر الصغير كبلجيكا وهولندا أنظف من الاستعماريين الكبار، ولكنه عمل على قدر استطاعته وبما تسمح به إمكاناته الأقل من غيرها بين الكبار، فالثابت الوحيد هو النهب: وكما بدأت الكشوف الجغرافية بالبحث عن الغنائم انتهى الحال بعد هذه الدورة الطويلة باحتكار ٢٠٪ من سكان العالم ٨٠٪ من موارده، بهدوء وسلاسة وقانون ونظام بل ورجاء من الضحية المتضررة بقاء هذا الخلل بدلاً من الحروب والمقاومة والاستعمار والتحرير، فلماذا يسفك الغرب الدماء من أجل الهيمنة على ثروة الأمم كالنفط مثلاً وهو يستحوذ عليه بعلاقات «قانونية» فيسير اقتصاده ومصانعه وشوارعه ويبيع بالثمن الباهظ أو البخس الذي يقبضه الملاّك بضائع مصنعة لهم ثم يحتفظ بالفوائض في بنوكه واستثماراته؟

النهب من الفقراء

ولو نظرنا إلى إفريقيا سنجد النهب منها أيضاً، ففي مثل صارخ نجد في ليبيريا أكبر مزارع المطاط في العالم وموارد من أضخم خامات الحديد بالإضافة إلى الأخشاب والذهب والألماس ولديها ثاني أكبر أسطول بحري وأعلى نسبة من الاستثمارات الأجنبية في العالم، ولكن في مقابل كل ذلك، وفي مقابل كونها في زمن من أسرع الاقتصاديات نمواً في العالم



وكانت لبرهة تلي اليابان مباشرة (!) نجد على أرض الواقع أن ليبيريا من أفقر الدول في العالم ومتوسط دخل الفرد فيها هو ثالث أدنى دخل في العالم ويعيش ما يقارب من ٨٥٪ من السكان تحت خط الفقر الدولي، وديونها ضخمة جداً تصل أضعاف الناتج المحلي الإجمالي، وعانت من أسرع عمليات الهبوط الاقتصادي في التاريخ في

أثناء حروبها الأهلية التي نتجت عن تركيبتها السكانية الاستعمارية غير المتجانسة، كل ذلك تم تحت شعارات تحرير وعودة الرقيق الأمريكيين إلى وطنهم والذين أصبحوا نخبة من السادة الاستعماريين الذين يهيمنون على السكان الأصليين في غرب إفريقيا وقاعدة للنفوذ الأمريكي في مواجهة الأفارقة ونفوذ الدول الأوروبية [محمد شعبان صوان، معضلة التنمية الاستعمارية، دار الروافد الثقافية، بيروت، ودار ابن النديم، الجزائر، ٢٠١٥، ص ٢٢٣، ٢٢٥]، كما صار الصهاينة في فلسطين تحت نفس الشعارات، تحرير اليهود وعودتهم، وباسم التجارة الحرة والباب المفتوح يصبح بلد ثري جداً في قاع الفقر العالمي نتيجة النهب الأجنبي، تحت شعارات حديثة وليبرالية، ولا نعجب أن صار شعار المساعدة أيضاً وسيلة للنهب، فباسم تقديم الأموال والمساعدات للدول الفقيرة صار ما يخرج من مواردها أكثر مما يدخل إليها، ولا يتوقف النهب حتى في زمن الجوع والفاقة إذ تذهب الموارد الكافية لسد حاجات جيوب المتخمين بدلاً من إطعام الجائعين، فلا عجب بعد ذلك أن نعلم ان موارد الأرض تتركز في أيدي حفنة من البشر، لا لقلتها بل بسبب الطمع والجشع والأثرة والمنفعة والمصالح التي أطلقت الرأسمالية بمراحلها المختلفة، من «دعه يعمل دعه يمر» إلى الإمبريالية فالعولمة، عقال غرائزها في البشر.

النتيجة

وبهذا يتبين أن القوي لم يعد بحاجة لظواهر القهر القديمة على نطاق واسع كالإبادة والاستعمار والقرصنة والرق والتخلف، اللّٰهُمَّ إلا في تأديب متمرد هنا أو عاص هناك، فما الحاجة إليها بعدما تحقق المراد منها وأصبح النهب سارياً على أوسع نطاق بموافقة الضحية؟ وإذا كان هذا النهب قد استقر في العالم بسلام مدة استغرقت النصف الثاني من القرن العشرين من الزمن فإن دوام الحال من المحال وبوادر التمرد العام على معادلة الخُمس وأربعة الأخماس لا تخطئها العين حتى لو أصيبت هذه الثورة بعثرات هي من طبيعة الظواهر البشرية.

مراجع

١-أحمد الشقيري، الجامعة العربية: كيف تكون جامعة وكيف تصبح عربية (الآثار الكاملة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ج ٤.

٢-أرنست فولف، صندوق النقد الدولي: قوة عظمى في الساحة العالمية، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٤٣٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، إبريل ٢٠١٦، ترجمة: د. عدنان عباس علي.

٣-تزفيتان تودوروف، فتح أمريكا: مسألة الآخر، سينا للنشر والصقر العربي للإبداع، القاهرة، ١٩٩٢، ترجمة: بشير السباعي.

٤-الدكتور رمزي زكي، الاقتصاد العربي تحت الحصار، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٩.

٥-الدكتور رمزي زكي، التاريخ النقدي للتخلف، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر ١٩٨٧.

٦-الدكتور رمزي زكي، الليبرالية المتوحشة: ملاحظات حول التوجهات الجديدة للرأسمالية المعاصرة، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٣.

٧-رجاء جارودي، فلسطين أرض الرسالات الإلهية، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٦، ترجمة: دكتور عبد الصبور شاهين.

٨-روجيه جارودي، الإرهاب الغربي (الجزء الثاني)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤، ترجمة: عبد المسيح فلي.

٩-روجيه غارودي، كيف نصنع المستقبل، دار عطية للنشر، بيروت، ١٩٩٨، ترجمة: صياح الجهيم.

١٠-صوفي بيسيس، الغرب والآخرون: قصة هيمنة، دار العالم الثالث، القاهرة، ٢٠٠٢، ترجمة: نبيل سعد.

١١-عبد المالك خلف التميمي، الوثائق البريطانية الرسمية عن منطقة الخليج العربي: رؤية نقدية، مجلة حديث الدار، العدد ٢١، دار الآثار الإسلامية، الكويت، ٢٠٠٦، ص ١٨-٢١.

١٢-فؤاد مطر (تحرير)، موسوعة حرب الخليج: اليوميات-الوثائق-الحقائق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ومركز فؤاد مطر للإعلام والتوثيق والاستشارات والدراسات، لندن، ١٩٩٤.

١٣-مارك فرو (تحرير)، الاستعمار: الكتاب الأسود (١٦٠٠-٢٠٠٠)، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٧، ترجمة: زياد منى.

١٤-محمد شعبان صوان، أمريكا الإسرائيلية وفلسطين الهندية الحمراء، دار الروافد الثقافية، بيروت، ودار ابن النديم، الجزائر، ٢٠١٦.

١٥-محمد شعبان صوان، السلطان والمنزل: الحياة الاقتصادية في آخر أيام الخلافة ومقاومتها لتمدد الرأسمالية الغربية، دار الروافد الثقافية، بيروت، ودار ابن النديم، الجزائر، ٢٠١٣.

١٦-محمد شعبان صوان، معضلة التنمية الاستعمارية، دار الروافد الثقافية، بيروت، ودار ابن النديم، الجزائر، ٢٠١٥.

١٧-هاري ماجدوف، الإمبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١.

١٨-والتر أ. مكدوجال، أرض الميعاد والدولة الصليبية: أمريكا في مواجهة العالم منذ ١٧٧٦، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ترجمة: رضا هلال.

١٩-وليام روجر لويس، موقف أمريكا المناهض للاستعمار وتفكيك الإمبراطورية البريطانية، مجلة الثقافة العالمية، العدد ٢٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير ١٩٨٦، ص ٧-٤٤، ترجمة: حاتم عبد الغني حاج محمد.

٢٠-الدكتور يوسف عبد الله صايغ، الاقتصاد العربي: إنجازات الماضي واحتمالات المستقبل، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣.



الخصائص العامة للجماهير (القانون النفسي لوحدتها الذهنية)

-مصطلح الجمهور يتخذ معنى آخر مختلفًا تمامًا من وجهة النظر النفسية، ففي بعض الظروف المعينة، وفي هذه الظروف فقط، يمكن لتكتل ما من البشر أن يمتلك خصائص جديدة مختلفة جدًّا عن خصائص كل فرد يشكله. فعندئذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد، وتتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة بلا شك.

هذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تمامًا عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولا.

-هناك أسباب عديدة تتحكم بظهور الصفات الخاصة بالجماهير، وأولها هو أن الفرد المنضوي في الجمهور يكتسب بواسطة العدد المتجمع شعورا بالقوة، وهذا ما يتيح له الانصياع لبعض الظواهر، ولولا هذا الشعور ما انصاع.

وأما السبب الثاني فهو العدوى العقلية أو الذهنية، فلدى الجمهور نرى أن كل عاطفة وكل فعل هما معديان بطبيعتهما، إلى حد أن الفرد يضحي بسهولة كبيرة بمصلحته الشخصية من أجل المصلحة الجماعية.

وهناك سبب ثالث أكثر أهمية وحسمًا بكثير لأنه يوجد في الأفراد المنخرطين في الجمهور صفات خصوصية تكون أحيانًا معاكسة لصفات الفرد مأخوذًا على حدة، أقصد بذلك هنا صفة التحريضية التي لا

تشكل عدواها المذكورة آنفا إلا أثر من آثارها.

إذن مجموع الخصائص الأساسية للفرد المنخرط في الجمهور: تلاشي الشخصية الواعية، توجه الجميع ضمن نفس الخط بواسطة التحريض والعدوى للعواطف والأفكار، الميل لتحويل الأفكار المحرض عليها إلى فعل وممارسة مباشرة، وهكذا لا يعود الفرد هو نفسه، وإنما يصبح عبارة عن إنسان آلي ما عادت إرادته بقادرة على أن تقوده.

هذا يعني أنه بمجرد أن ينضوي الفرد داخل صفوف الجمهور فإنه ينزل درجات عديدة في سلم الحضارة، فهو عندما يكون فردًا معزولًا ربما يكون إنسانًا مثقفًا متعقلًا، ولكنه ما إن ينضم إلى الجمهور حتى يصبح مقودًا بغريزته وبالتالي همجيًّا. وهو عندئذٍ يتصف بعفوية الكائنات البدائية وعنفها وضراوتها وحماستها وبطولاتها أيضًا.

-من وجهة نظر العواطف والأعمال التي تثيرها هذه العواطف فإنه يمكن لهذا الجمهور أن يسير نحو الأفضل أو الأسوأ. وكل شيء يعتمد على الطريقة التي يتم تحريضه أو تحريكه بها.

صحيح أن الجماهير غالبًا ما تكون مجرمة، ولكنها غالبًا ما تكون أيضًا بطلة؛ فمن السهل اقتيادهم إلى المذبحة والقتل باسم النضال من أجل انتصار عقيدة إيمانية أو فكرة ما.

صحيح أنها بطولة لا واعية إلى حد ما، ولكن التاريخ لا يُصنع إلا من قبل بطولات كهذه.

خصائص الجماهير الأساسية

١-سرعة الانفعال وخفتها ونزقها

لا شيء معتمد ومدروس لدى الجماهير؛ فهي تستطيع أن تعيش كل أنواع العواطف وتنتقل من النقيض إلى النقيض بسرعة البرق، وذلك تحت تأثير المحرِّض السائد في اللحظة التي تعيشها. الجماهير تشبه الأوراق التي يلعب بها الإعصار ويبعثرها في كل اتجاه قبل أن تتساقط على الأرض.

وهذه الصفة الحركية المتغيرة التي تتميز بها الجماهير تجعل من الصعب حكمها، وخصوصا عندما يسقط

جزء من السلطات العامة في يدها. الجماهير التي ترغب في الوصول إلى الأشياء بنوع من السعار المجنون لا تثبت عليها لفترة طويلة؛ فهي عاجزة عن الإرادة الدائمة مثلما هي عاجزة عن التفكير الدائم والمستقر.

ولا ريب في أن الجماهير تتسم بالنزق والانفعالية، ولكن بدرجات متفاوتة ومتغيرة.

٢-سرعة تأثر الجماهير وسذاجتها وتصديقها لأي شيء:

إن الجمهور يشرد باستمرار على حدود اللا شعور ويتلقى بطيبة خاطر كل الاقتراحات والأوامر. كما أنه مليء بالمشاعر الخاصة بالكائنات غير القادرة على الاحتكام للعقل ومحروم من كل روح نقدية. وبالتالي فهو لا يستطيع إلا أن يبدي سذاجة وسرعة تصديق منقطعة النظير. والمستحيل غير موجود بالنسبة له، وينبغي التذكير بذلك من أجل أن نفهم كيف تخلق الأساطير والحكايات الأكثر غرابة وشذوذًا وكيف تشيع وتنتشر بسهولة.



إن خلق الأساطير التي تنتشر بمثل هذه السهولة في أوساط الجماهير ليس فقط ناتجًا عن سرعة كاملة في التصديق، وإنما عن تشويه هائل أو تضخيم هائل للأحداث في مخيلة الأفراد المحتشدين (أي الجمهور). فالحدث الأكثر بساطة يتحول إلى حدث آخر مشوه بمجرد أن يراه الجمهور.

٣-عواطف الجماهير: تضخيمها وتبسيطها

إن العواطف التي تعبر عنها الجماهير سواء أكانت طيبة أم شريرة تتميز بطابع مزدوج، بمعنى أنها مضخمة جدا ومبسطة جدا.

٤-تعصب الجماهير واستبداديتها ونزعتها المحافظة

بما أن الجمهور لا يشك لحظة واحدة فيما يعتقده الحقيقة أو الخطأ، وبما أنه واع كل الوعي بحجم قوته فإن استبداده يبدو بحجم تعصبه. وإذا كان الفرد يقبل الاعتراض والمناقشة، فإن الجمهور لا يحتملها أبدًا. وفي الاجتماعات العامة نلاحظ أن أقل اعتراض يصدر عن خطيب ما سرعان ما يقابل بالصياح والغضب والشتائم العنيفة.

إن الاستبداد والتعصب يشكلان بالنسبة إلى الجماهير عواطف واضحة جدا، وهي تحتملها بنفس السهولة

التي تمارسها؛ فهي تحترم القوة ولا تميل إلى احترام الطيبة التي تعتبرها شكلا من أشكال الضعف. وما كانت عواطفها متجهة أبدًا نحو الزعماء الرحيمن والطيبي القلب. وإنما نحو المستبدين الذين سيطروا عليها بقوة وبأس، وهي لا تقيم تلك النصب التذكارية العالية إلا لهم، وإذا كانت تدعس بأقدامها الديكتاتور المخلوع فذلك لأنه فقد قوته ودخل بالتالي في خانة الضعفاء المحتقرين وغير المهابين.

وبما أن الجماهير مستعدة دائما للتمرد على السلطة الضعيفة فإنها لا تحني رأسها بخنوع إلا للسلطة القوية. وإذا كانت هيبة السلطة متناوبة أو متقطعة فإن الجماهير تعود إلى طباعها المتطرفة وتنقل من الفوضى إلى العبودية، ومن العبودية إلى الفوضى.

إن الاعتقاد بهيمنة الغرائز الثورية على الجماهير يعني الجهل بنفسيتها؛ فعنفها وحده هو الذي يوهمنا بخصوص هذه النقطة، فانفجارات الانتفاضة والتدمير التي تحصل من حين لحين ليست إلا ظواهر عابرة مؤقتة؛ فالجماهير محكومة كثيرًا باللاوعي، وبالتالي فهي خاضعة أكثر مما يجب لتأثير العوامل الوراثية العتيقة التي تجعلها تبدو محافظة جدا جدا؛ فإذا ما تركت لنفسها فإنها تمل من فوضاها وتتجه بالغريزة نحو العبودية.

٥- أخلاقية الجماهير

إذا كان الجمهور قادرا على القتل والحرق ومختلف أنواع الجرائم، فإنه قادر أيضًا على أفعال التضحية والنزاهة.

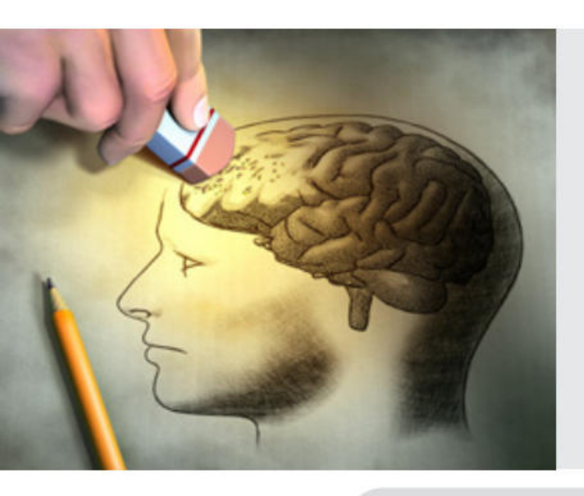
أفكار الجماهير

لا ينبغي علينا أن نعتقد أن مجرد البرهنة على صحة فكرة ما يعني أنها سوف تفعل مفعولها حتى لدى الناس المثقفين فعلًا، ويمكننا أن نتحقق من ذلك عندما نرى أن البرهنة الأكثر وضوحًا ليس لها تأثير على معظم البشر.

صحيح أنه يمكن للحقيقة الساطعة أن تلقى أذنًا صاغية لدى السامع والمثقف، ولكنه سيعيدها فورًا بواسطة لا وعيه إلى تصوراته البدائية. حاولوا أن تروه بعد بضعة أيام فسوف ترونه يستخدم من جديد محاجاته القديمة وبنفس الألفاظ تمامًا؛ وذلك لسبب بسيط هو أنه واقع تحت تأثير الأفكار السابقة التي تحولت إلى عواطف وترسخت. وهذه الأفكار هي وحدها التي تؤثر علينا وتحرك بواعثنا العميقة التي تربض

خلف أعمالنا وكلامنا.

وعندما تتوصل فكرة ما بواسطة مجريات متعددة إلى الانغراس في روح الجماهير فإنها تكتسب قوة لا تقاوم، وينتج عنها سلسلة من الانعكاسات والنتائج؛ فالأفكار الفلسفية التي أدت إلى الثورة الفرنسية أخذت وقتا طويلا قبل أن تنغرس في الروح الشعبية. لقد أدت إلى انتفاضة شعب بأسره من أجل التوصل إلى العدالة الاجتماعية.



وإذا كان يلزم وقت طويل لكي تترسخ الأفكار في نفوس الجماهير، فإنه يلزم وقت لا يقل عنه طولًا لكي تخرج منها.

المحاجات العقلية للجماهير

لا يمكننا القول بشكل مطلق أنه لا يمكن التأثير على الجماهير بواسطة المحاجات العقلية، ولكن الحجج التي تستخدمها وتلك التي تؤثر عليها تبدو من وجهة النظر المنطقية جدًّا متدنية إلى حد لا يمكننا وصفها بالعقلانية إلا عن طريق القياس والتشبيه.

وضعف بعض الخطابات التي مارست تأثيرًا ضخمًا على السامعين تدهشنا أحيانًا عندما نقرؤها، ولكننا ننسى أنها كُتبت من أجل تعبئة الجماهير وليس من أجل أن تقرأ من قبل الفلاسفة.

خيال الجماهير

لما كانت الجماهير عاجزة عن التفكير إلا بواسطة الصور، فإنه لا يمكن جذبها والتأثير عليها إلا عن طريق الصور؛ ولهذا السبب فإن التمثيلات المسرحية التي تقدم الصور بصيغتها الأكثر وضوحًا لها دائمًا تأثير ضخم على الجماهير.

وعلى قاعدة الخيال الشعبي تأسست مقدرة الفاتحين وقوة الدول، وكل الأحداث التاريخية الكبرى عبارة عن نتائج مباشرة أو بعيدة لانطباعات قوية أثرت على خيال الجماهير. ولهذا السبب نجد أن رجالات الدولة الكبار في كل العصور قد اعتبروا الخيال الشعبي بمثابة أكبر داعم لسلطتهم.

ومن المهم هنا عرض الأشياء ككتلة واحدة وبدون تبيان منشئها أو ولادتها؛ فمائة حادث صغير لا تؤثر، ولكن حادث واحد يتم التركيز على عرضه في الصورة المطلوبة سيكون له نتائج أكثر.

ليست الوقائع بحد ذاتها هي التي تؤثر على المخيلة الشعبية، وإنما الطريقة التي تعرض بها هذه الوقائع، وينبغي على هذه الأحداث عن طريق التكثيف أن تولد صورة مؤثرة وأخاذة تملأ الروح كالهوس.

إن معرفة فن التأثير على مخيلة الجماهير تعني معرفة فن حُكمها.

الأشكال الدينية التي تتخذها كل قناعات الجماهير

قناعات الجماهير في فترات الإيمان أو فترات الانتفاضات السياسية، تمثل دائما العاطفة الدينية، ولهذه العاطفة خصائص، عبادة شخص يعتبر خارقا للعادة، الخوف من القوة التي تعزى إليه، الخضوع الأعمى لأوامره، استحالة أي مناقشة لعقائده، الرغبة في نشر هذه العقائد، الميل لاعتبار كل من يرفضون تبنيها بمثابة أعداء.

وسواء أسقطت عاطفة كهذه على الإله الذي لا يُرى، أو على صنم معبود، أو على بطل، أو على فكرة سياسية، فإنها تبقى دائمًا ذات جوهر ديني، كما أن كلا من العنصرين الخارق للطبيعة والمعجز يتواجد فيها، فالجماهير تخلع على التشكيلة السياسية أو الزعيم الذي يلهب حماستها مؤقتًا نفس القوة السرية المليئة بالأسرار.

فالإنسان ليس متدينًا فقط عن طريق عبادة آلهة معينة، وإنما أيضًا عندما يضع كل طاقاته الروحية وكل خضوع إرادته وكل احتدام تعصبه في خدمة قضية ما أو شخص ما كان قد أصبح هدف كل العواطف والأفكار وقائدها.

لا داعي لتكرار الحقيقة البدهية بأن الجماهير بحاجة إلى دين؛ فالعقائد السياسية والسماوية والاجتماعية لا تترسخ لديها إلا بشرط أن تكتسي دائما الحلة الدينية التي تضعها بمنأى عن المناقشة والأخذ والرد.

فلو أمكن فرض الإلحاد على الجماهير لاتخذت كل ضراوة التعصب الخاص بالعاطفة الدينية، ولأصبحت بسرعة في أشكالها الخارجية نوعًا من الطقس الشعائري.

يروي دوستويفسكي قصة ذلك العدمي، الذي بعد أن أضاءته أنوار العقل يومًا ما، كسر صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين هيكل مصلاه الصغير، وأطفأ الشمعات، وبدون أن يضيع لحظة واحدة فإنه استبدل بالصور الممزقة مؤلفات بعض الفلاسفة الملحدين! ثم أعاد من جديد إشعال الشمعات!

لا ريب في أن موضوع عقائده الدينية قد تحول، ولكن هل يمكننا القول فعًلا بأن عواطفه الدينية قد تغيرت؟

العوامل المشكلة لعقائد الجماهير وآرائها

العوامل التي تحدد آراء الجماهير وعقائدها ذات نوعين: عوامل بعيدة وعوامل قريبة أو مباشرة. فالعوامل البعيدة تمهد الأرضية لتبرعم وانبثاق الأفكار الجديدة؛ فانفجار بعض الأفكار وتبلورها لدى الجماهير يشكل أحيانًا مباغتة صاعقة، ولكن ذلك ليس إلا أثرًا سطحيًّا يخبئ وراءه عادة عملًا طويلًا وبطيئًا سابقًا.

أما العوامل القريبة أو المباشرة فهي تلك التي إذا ما تراكبت على ذلك العمل التمهيدي الطويل الذي لا يمكنها أن تفعل فعلها بدونه، أثارت الاقتناع الفعال لدى الجماهير، نقصد بذلك أنها تبلور الفكرة وتخلع عليها هيئتها ثم تجيشها وتهيجها بكل نتائجها وانعكاساتها، وتحت ضغط هذه العوامل المباشرة تنبثق القرارات التي تحرك الجماعات البشرية فجأة؛ فهي التي تؤدي إلى انفجار تمرد شعبي ما أو شن إضراب ما، وهي التي تدفع أغلبية كبيرة من الشعب إلى الوصول بشخص ما إلى سدة السلطة، أو إسقاط حكومة معينة.

مثلا الثورة الفرنسية، من بين عواملها البعيدة نقد الكُتاب والمفكرين للنظام القديم، ثم ابتزاز هذا النظام وتجاوزاته. وهكذا تهيأت روح الجماهير للثورة واستطاعوا تجييشها فيما بعد بواسطة عوامل مباشرة كخطابات الخطباء مثلًا.

ومن العوامل البعيدة:

١-العرق

مجموعة الأفكار والمعتقدات وغير ذلك من الأشياء المكونة لشخصية عرق ما.

٢-والتقاليد الموروثة

خلاصة تجارب العرق

٣-والزمن

إن الزمن هو الذي يطبخ آراء وعقائد الجماهير على ناره البطيئة، بمعنى أنه يهيئ الأرضية التي ستنشأ عليها وتبرعم.

٤-والمؤسسات السياسية والاجتماعية:

فكرة أن المؤسسات يمكنها أن تشكل علاجًا لنواقص المجتمع، وإن تقدم الشعب ناتج عن إكمال الدساتير وأشكال الحكومات، وإن المتغيرات الاجتماعية يمكن ن تنتج بمجرد سن القوانين -وهم كبير، المؤسسات تؤثر على روح الجماهير لأنها تولد انتفاضات.

٥-والتربية والتعليم:

فكرة أن النتيجة المؤكدة للتعليم تكمن في تحسين أوضاع البشر وإصلاحهم بل وجعلهم متساوين.

وهذا متناقض بعمق مع معطيات علم النفس والتجربة، ففلاسفة عديدون استطاعوا البرهنة بسهولة على أن التعليم إذا طُبق بشكل سيء فإنه يصبح ضارًّا أكثر مما هو نافع.

وخطر النظام التعليمي السائد هو ارتكازه على خطأ نفسي أساسي مفاده أن استذكار الكتب المدرسية يطور الذكاء أو يجعله يتفتح. وهكذا نجد أن الطالب ما ينفك منذ السنة الابتدائية وحتى الدكتوراه يبتلع مضمون الكتب بدون أن يُشغل عقله أو رأيه الشخصي؛ فالتعليم بالنسبة له يتمثل في الحفظ والطاعة. وهذا يؤدي في النهاية إلى خفض مستوانا وجعلنا عاجزين.



ويمثل هذا النظام التعليمي خطرًا أكبر بكثير لأنه يوحي للطفل الذي تلقاه تقززًا عنيفًا من البيئة التي وُلد فيها والرغبة الشديدة في الخروج منها. فالعامل لم يعد يرغب أن يبقى عاملًا، والفلاح لم يعد يرغب في أن يبقى فلاحًا، وآخر البرجوازيين لم يعد يرى لأولاده من مهنة ممكنة إلا أن يصبحوا موظفين ذوي رواتب لدى الدولة.

وبدلًا من تحضير رجال المستقبل لمواجهة الحياة؛ فإن المدرسة لا تحضرهم إلا للوظائف العامة حيث لا يتطلب النجاح أي جهد شخصي أو مبادرة ذاتية من طرف الطالب.

فهو نظام يخلق في أسفل السلم الاجتماعي جيوشًا من البروليتاريين الناقمين على وضعهم والمستعدين دائمًا للتمرد، ويخلق في أعلى السلم الاجتماعي بورجوازية طائشة تثق ثقة خرافية بالدولة وكأنها قادرة على صنع المعجزات. وعلى الرغم من ذلك فهي تلومها باستمرار وتتهم الحكومات باقتراف أخطائها الخاصة بالذات. وهي عاجزة عن القيام بأي مبادرة أو مشروع بدون تدخل السلطة.

والدولة التي تخرج بواسطة هذه الكتب المدرسية البائسة كل هؤلاء الطلاب لا تستطيع أن توظف منهم إلا عددًا صغيرًا وتترك الآخرين بدون عمل وتجعلهم أعداء لها. ومن أعلى الهرم الاجتماعي إلى أسفله نجد أن الكمية الضخمة من الخريجين تحاصر كل المهن والوظائف. (بعد أن أصبحوا مجموعة من محدودي الفكر، وهكذا تتشكل درجة ذكاء المجتمع).

فوحدها التجربة هي المربية الأولى والأخيرة للشعوب، ووحدها قادرة على إقناعنا بضرورة تغيير كتبنا المدرسية الغبية، ومسابقتنا (الامتحانات) المحزنة، واستبدال التعليم المهني والتخصصي بها.

ربما كان ممكنًا أن نقبل كل أضرار نظامنا التعليمي الكلاسيكي، على الرغم من أنه لا ينتج إلا الساقطين والناقمين، لو أن الاكتساب السطحي لهذه المعلومات والترداد الببغائي لكل تلك الكتب المدرسية يرفعان من مستوى الذكاء والفهم. ولكن هل يؤدي بالفعل إلى هذه النتيجة؟ لا، للأسف الشديد! فالحكم الصائب والتجربة وحس المبادرة والطبع القوي تشكل شروطًا للنجاح في الحياة، ولا يمكننا أن نجدها في الكتب. ذلك أن الكتب هي عبارة عن قواميس مفيدة للاستشارة، ولكن ليس ضروريًّا أبدًا أن نخزن في الرأس مقاطع مطولة منها.

العوامل المباشرة أو القريبة التي تساهم في تشكيل آراء الجماهير

١-الصور والكلمات والعبارات (أو الشعارات)

٢-الأوهام

٣-التجربة

٤-العقل (بالمعنى السلبي)



محركو الجماهير

القائد يلعب دورًا ضخمًا بالنسبة إلى الجماهير؛ فإرادته تمثل النواة التي تتحلق حولها الآراء وتنصهر فيها، والجمهور عبارة عن قطيع لا يستطيع الاستغناء عن سيد.

إن القادة ليسوا في الغالب رجال فكر، ولا يمكنهم أن يكونوا، وإنما رجال ممارسة وانخراط، وهم قليلو الفطنة وغير بعيدي النظر؛ فبُعد النظر يقود عمومًا إلى الشك وعدم الانخراط في الممارسة والعمل.

وأيًّا تكن عبثية الفكرة التي يدافعون عنها أو عبثية الهدف الذي يطاردونه؛ فإن كل محاجة عقلانية تذوب وتتلاشى أمام قناعتهم الإيمانية والعاطفية. والاحتقار الذي يلقونه من الآخرين أو الاضطهاد لا يفعلان إلا أن يزيدا من إثارتهم وتهييجيهم أكثر فأكثر؛ فهم مستعدون للتضحية بكل شيء، وكثافة الإيمان تعطي لكلامهم قوة تحريضية كبيرة؛ فالكثرة تصغى دائمًا للإنسان المزود بإرادة قوية.

إن دور القادة الكبار يكمن في بث الإيمان، سواء أكان هذا الإيمان دينيًّا أم سياسيًّا أم اجتماعيًّا، إنهم يخلقون الإيمان بعمل ما، أو بشخص ما أو بفكرة ما .

فإذا ما تزود الإنسان بالإيمان تضاعفت قوته عشرات المرات؛ فغالبًا ما أنجزت أحداث التاريخ الكبرى من قبل مؤمنين مجهولين لا يمتلكون إلا إيمانهم الخاص. والأديان التي حكمت العالم والإمبراطوريات الشاسعة الممتدة لم تؤسَّس من قِبل الأدباء والفلاسفة ولا المتشككين بالطبع.

وسائل العمل التي يستخدمها المحركون أو القادة

عندما نريد أن ندخل الأفكار والعقائد ببطء إلى روح الجماهير فإننا نجد أن أساليب القادة تختلف؛ فهم يلجأون بشكل أساسي إلى الأساليب الثلاثة التالية: أسلوب التأكيد، وأسلوب التكرار، وأسلوب العدوى. لا ريب في أن تأثيرها بطيء ولكنه دائم.



إن التأكيد المجرد والعاري من كل محاجة عقلانية أو برهانية يشكل الوسيلة الموثوقة لإدخال فكرة ما في روح الجماهير. وكلما كان التأكيد قاطعًا وخاليًا من كل برهان كلما فرض نفسه بهيبة أكبر، وكي يُحدث ذلك تأثيرًا فعليًّا لابد من التكرار باستمرار وبنفس الكلمات والصياغات ما أمكن ذلك، وعندئذ يتشكل تيار الرأي العام، وتتدخل الآلية الجبارة للعدوى وتفعل فعلها وتنتشر هذه الفكرة بين الجماهير.

إن العدوى من القوة بحيث إنها تفرض على البشر ليس فقط بعض الآراء وإنما أيضًا بعض الطرق في الإحساس والشعور. وهكذا تنتشر الآراء والعقائد بواسطة آلية العدوى وليس بواسطة المحاجة العقلانية إلا في القليل النادر.

الهيبة والاحترام

القادة الذين يملكون الهيبة الشخصية يمارسون سحرًا مغناطيسيًّا حقيقيًّا على أولئك الذين يحيطون بهم، بمن فيهم أندادهم؛ فهم يطيعونهم طاعة عمياء كما تطيع الدابة المتوحشة مروِّضها على الرغم من أنها تستطيع أن تفترسه بكل سهولة.

والنجاح كان دائمًا أحد أهم عوامل تشكيل الهيبة الشخصية؛ فالإنسان الذي ينجح والفكرة التي تفرض نفسها لا يعود أحدٌ قادرًا على معارضتها بسبب هذا النجاح بالذات؛ فالهيبة تختفي دائمًا مع الفشل؛ فالبطل الذي صفقت له الجماهير بالأمس قد تحتقره علنًا في الغد إذا ما أدار الحظ له ظهره؛ بل رد فعلها ضده يكون عنيفًا بقدر ما كان احترامها له كبيرًا.

اليوم الأسود

مدير التحرير

سيظل يوم ١٤ أغسطس الماضي يومًا أسود في تاريخ مصر، ذلك اليوم الذي أقدم فيه مرتزقة الانقلاب بقتل ما يربو عن ١٥٠٠ إنسان -على أقل تقدير-، لا ذنب لهم إلا أنهم قد خرجوا معترضين على اغتصاب مرتزقة العسكر لحكم البلاد من أول رئيس منتخب في تاريخ مصر كله، فلم يرضوا بالدنية في دينهم ووطنهم وحريتهم، ولأنهم رفضوا الانصياع والانقياد لهؤلاء المحتلين صنائع الصهاينة وأمريكا.

إنه اليوم الفاضح الفاصل الذي قسّم الناس إلى قسمين، قسم قد أعمى الباطل بصره وملأ تأييد الظلم قلبه، وقسم آخر وقف مع الحق وإن كان الثمن المدفوع هو حياته وأمنه الشخصي.

يوم قد فضح كل أصحاب المبادئ الزائفة، فضح العسكر الذين لطالما تغنوا بأن دماءهم رخيصة مقابل حماية شعبهم، وفضح العلمانيين والليبراليين الذين رفعوا راية الحرية وحقوق الإنسان في كل مكان وإذا بهم يصفقون للقاتل، وفضح المعممين المنافقين الذين صدعوا رؤوسنا بضرورة الصدع بالحق وأهمية إنكار المنكر، وفضح قادة الكنيسة القبطية الذين يترنمون بالمحبة وقد ملأت الكراهية قلوبهم!

إنه اليوم الذي أكّد بشكل قاطع أن هذه البلاد لن ترى نور الحرية أبدًا، ولن تخرج من أسر الاحتلال الأمريكي الصهيوني لها بواسطة صنائعها =إلا بمخاض طويل من مدافعة هذه العصابة، لا بالإصلاح السياسي الجزئي الموهوم في مجلس النواب مثل (طراطير) حزب النور؛ فتلك العصابة التي أراقت دماء الآلاف، واعتقلت عشرات الآلاف من الطلاب والنساء والشيوخ وحتى الأطفال، وورطت مصر في ديون فوق ديونها التي تجعل مصر ذليلة لدائنيها لمئات السنين القادمة، وأفقرت الشعب وسرقت خيره =لن تترك حكم مصر ولن تفرط في إمبراطوريتها القوية المسلحة الغنية لأجل رأي الناس ومطالبهم الرقيقة بالحرية والعدالة الاجتماعية.

تلك المدافعة لن تكون تحت راية علمانية مهما كان اسمها وشعاراتها الزائفة، لن تكون تحت راية تحمل فكرًا انبطاحيًّا انهزاميًّا يجبن عن المواجهة ويستحي من عقيدته.. إنها فقط ستكون تحت راية إسلامية خالصة.

راية إسلامية تعتز بشريعتها السمحاء، وتفخر بها في كل صعيد، وتستصحبها في كل وادٍ ونادٍ، وتبشر بها بعلمية وواقعية، لا مجرد شعارات خاوية من مضمون واقعي، بل بتصور كامل عن كل تحديات الواقع، بما فيها كيفية منازعة تلك المرتزقة وإسقاط نظامها.

اللَّهُمَّ ارحم شهداءنا الذين ارتقوا في هذا اليوم، وكل شهدائنا الذين قضوا مدافعين عن الحق في كل مكان.